

قلّة ونُعناع

د. مصطفى عطية جمعة



اسم العمل: قلة ونعناع
الكاتب: د. مصطفى عطية جمعة
تصميم الغلاف: عبير فاروق
إخراج فني: أمل رضوان
رقم الإيداع: 2026/10537
التقييم الدولي: 978-633-8442-26-5

(جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبة للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها
إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر)



خالد عدلي

00201002688188

info.mothakf@gmail.com



مجموعة قصصية

قناة ونعناع

د. مصطفى عطية جمعة

الفهرس

٥	مفتتح.....
٧	شاربٌ وخروف.....
١٩	الأخضر والعنزة.....
٢٧	مسك وعنبر.....
٥٥	عقدٌ وغوايش.....
٧١	الحلوة والمُرّة.....
٨٤	شمع وعسل.....
٩٤	سعيد وسعيدة.....
١٠٤	سجاد وفأس.....
١١٧	غصنٌ وعشٌ.....

مفتتح

"يمكن للحكيم الجلوس على عرش النمل،

وإذا حاول الأحمق فسيأكله النمل"

شَارِبُ وَخُرُوف





الشارع يغصّ بالطلاب، في غدوهم الصباحي إلى مدارسهم، وبينهم يسير "شعبان" الهويني، متنسماً الهواء الصافي المحمل برطوبة مياه "بحر يوسف"، الذي يشق مدينته الصغيرة، متفرعا عن النهر الكبير المخترق أدنى الوادي إلى أعلى دلتاه.

الكوفية محكمةٌ في لفتها حول رقبتة، والطاقيه الصوفية متدلّية إلى أذنيه، وهو متدثر بالطو سميك، محافظ على سواده، رغم مضي سنوات لا يتذكر عددها، منذ أن اشتراه من محل فاخر وسط القاهرة، وأصبح رفيقه في الشتاءات الباردة.

شعر كأنه سابح في بحيرة دافئة؛ فما أقسى البرد إذا توغّل في عظامه! البخار يتلاحق مع أنفاسه، يعلم يقينا أن أنفه احمرّ بفعل البرودة، التي لم تجدْ إلا وجهه كي تمارس سطوتها عليه، وتغزوه بسهام صقيعها. داعب بأصابعه فتحتي منخاره، وحكّهما جيّدا، لعل بعض الحرارة من كف يميناه، تمنح أنفه مزيدا من الدفء، إلا أنها لن تمحو الاحمرار.

هكذا اعتاد منذ شبابه، وإلى شيخوخته؛ أن يبكر لفتح دكانه، القابع في أول "شارع الرملة"، بواجهة ضيقة على البحر، رغم قناعته أن النادر من زبائنه، هو مَنْ يفضّل الحلاقة في الصباح الباكر، وهم غالبا من كبار السن، الذين صلّوا الفجر، وجلسوا في الشرفات، يتأملون الشروق، محتسين حليبا ساخنا، ممزوجا بالشاي أو الزنجبيل.

يسير على الرصيف الأيمن للشارع، تشرق حوله وجوه الطالبات بابتسامات بريئة. هن في سن حفيداته، وها هي الذاكرة تُرجعه إلى أيام خلت، عندما كان يصحب ابنتيه "حسنا وحنان" إلى مدرستهما الابتدائية، وسط المدينة. تقبلان يده عندما يناولهما مصروفهما، ثم تدلفان إلى بوابة المدرسة، ويلقي هو السلام على الحارس "عم عبده"، الذي هو أحد زبائنه.

بعدها يعود أدراجه إلى محله للحلاقة، إلى أن يحين خروج ابنتيه، لتعودا معه إلى البيت بعد الظهيرة، فيتغدى مستمتعا بحكاياتهما الضاحكة عن أجواء المدرسة، وطرائف ومواقف عن المعلمات والتلميذات، ويتأكد من التهامهما للسندويشات في الفسحة.

ابتسم لتلميذة في الابتدائي، تسير صحبة أختها في الثانوي، وقد لفت إشاربا قطنيا أبيض على رأسها، وبرزت مريلتها المدرسية، أسفل معطف بني اللون، بينما استقرت حقيبة كتبها على ظهرها. تفرك البنوتة كفيها، مستجلبة دفئا عزيزا في البكور.

يتأمل الحقائق المدرسية الملونة، يقرأ المدون عليها من عبارات وكلمات بالإنجليزية، وقد ازدانت بها ظهور الطلاب والطالبات. هم يسبقونه في السير، لا يكفون عن الثثرة والضحك، فيما يؤثر هو التؤدة في خطواته، فما الزمن إلا لحظات يأنس فيها المرء إلى خواطره متدفقة في أعماقه، "عش الزمن بكل دقيقة، واسترجع ما تحب، واطرد ما ينغصك".

تتداعى إلى ذاكرته الحقيبة القماشية، التي خاطتها لها أمه بما تبقى من قماش مريلته الكاكية، ووضعت له فيها كراسه وقلم رصاص، وهي تقبله في أول أيام ذهابه للمدرسة الابتدائية. كانت "مدرسة التوفيق"، مبنائها العتيق؛ في آخر شارع المدارس.

اصطحبه والده إليها طيلة أيام الأسبوع الأول، قبل أن يألف الصبي الطريق، فيسلكه بمفرده كل يوم. يعلق حقيبته في كتفه، ويمسك بيد زميل فصله "رمضان"، وهو يغمغم ضاحكا له: "نحتاج زميلين آخرين، واحدا اسمه رجب، والثاني سؤال"، مردفا "ونكون نحن الأربعة من شهور



السنة الهجرية". يضحك رمضان، ويسأله كيف عرف هذه الشهور، فيجيبه الثاني، أن أباه حفظه إياها، لأنها شهور مباركة.

كان ذلك في عقد الستينيات، حين أنهى الفتى شعبان المرحلة الابتدائية، ثم واصل دراسته في المرحلة الإعدادية، ثم توجّب عليه الاكتفاء بشهادتها، وهو الذي حلم بالجامعة؛ فقد مات أبوه، وبعدهما فكّوا "صِيوان" العزاء المنصوب أمام بيتهم، ربتت أمه على كتفه ماسحةً ما تبقى من دموعها، وهي تهمس له: "أنت رجل البيت يا بني".

كان خاله "بدوي" بجوارهما، فاصطحب الفتى ذا الأربعة عشر عاماً- الذي ارتدى قميصاً أبيض وبنطالاً أسود- إلى خارج المنزل، وأبانَ له ما يعتمل في صدر أمه، التي أفاقت سريعاً بعد وفاة أبيه، وهي ترى صغارها الأربعة، طفلتين تتعلقان بعباءتها السوداء، والولد الثالث تحمله على يدها، أما كبيرهم شعبان، فقد بدت عليه أمارات الرجولة.

تمتم الخال لابن الأخت: "سأخذك لأعلمك صنعة الحلاقة، وتساعد أمك".

عينا الفتى حائرتان، تيقن أنه سيفارق المدرسة.

انحنى ليفتح قفل دكانه، ثم رفع الباب الحديدي عالياً، تطلع إلى الباب الخشبي لدكانه، تخيّم زجاج نوافذه؛ بفعل شبورة الصباح. فتح المصرعين إلى الخارج، فبدا المحل غارقاً في الظلام، فلا تزال الشمس عزيزة، تأتي مزاحمة الضباب الجاثم، مكثفية بإضاءتها للكون الرحب.

يشتناق للشمس الدافئة، كي يقتعد كرسيًا أمام دكانه، فاردا ساقيه، مستمتعا بأشعة ذهبية، تغرق العتبة، وتدلّف إلى مقعد الحلاقة، ثم تتمدد إلى المرأة الكبيرة، التي تحتل نصف الحائط الأيسر، فتعكس المرأة بدورها الأشعة لتدفاً المحل.

اضطر لإضاءة لمبة النيون أعلى السقف، فانتشر ضوءها الأبيض، ولكن هيهات أن يضاها سطوع الشمس. توجه نحو المذيع القابع في الركن الأيمن، فانسابت آيات القرآن بصوت الشيخ الحصري، تلاوة شجية لسورة مريم، أنصتَ لها، ثم ردد من محفوظه بقية الآيات.

يتذكر كيف حفظه لهذه السورة، وهو في التاسعة؛ مشافهةً على الشيخ يوسف، مقرئ مسجد قايتباي، الذي يواجه بيتهم، منحه أبوه شلن فضة (خمسة قروش)؛ عندما رتلّ السورة أمامه في جلسة العصرية، على مصطبة البيت.

تطلع إلى أرضية المحل؛ بلاطها لامع، اعتاد أن لا يغلق محله مساءً إلا بعد كنس الشعر المتطاير، وتلميع المرأة وزجاج اللوحات المعلقة، التي حوت آيات قرآنية، إحداها قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}، موقنا أن الصبر مفتاح خير، فإن لم يأت الرزق، فحتمًا سيأتي الفرج. واللوحة الثانية اشتراها قبل حرب ١٩٧٣، مدون عليها {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وقد بُهتَ إطارها الذهبي، وتكسرت حوافها، ولا يزال خطها زاهيا بلونه الفضي.

قاداته قدماه إلى مكانه المفضّل، خلف الحاجز الخشبي في آخر المحل، ضغط زر الإنارة الأصفر، تحسّس موقد السبرتو، وهزّه ليتأكد من توافر الوقود به، أشعله؛ صب الماء في كنيكة القهوة، ومعها ملحقة بِن مُحَمَّص، ونصف ملحقة سكر.



تَسْمُ رائحة البُن وهو يغلي، تبرع زوجته "أميمة" في تحميصه بفرن البيت، مع الحَبَّان، بخلطة سرية، تتباهى بها بين أفراد العائلة، وهم يحتسونها باستمتاع.

حمل الفنجان، أطفأ "السبرتاية"؛ بكتّم فتيلها بغطاء نحاسي، ثم استدار إلى أرفف تراصت عليها مجلدات وكتب، مرّر إصبعه عليها، مستيقنا أن لا ذرة تراب عليها.

تفحصها وكأنه ينظر لها للمرة الأولى، كلُّ كتاب ومجلد وراءه حكاية عند شرائه، أكثرها من دكاكين سور الأزبكية في العاصمة، بعضها من تجار الكتب المستعملة، الذين كانوا يطوفون بعرباتهم الخشبية على المحلات، يبيعون الكتب المدرسية، ومجلات بيروت عن الفنانين واللاعبين، والمجلات الأجنبية بنسائها الشقراوات، أكثر هؤلاء البائعين لا يعرفون قيمة ما حملوه من كتب قديمة، اشتروها بالكيلو من ورثة المكتبات الخاصة.

تنتصب أرفف الكتب وراء الحاجز الخشبي، برع في ترتيبها، تأمل مجلدات ألف ليلة وليلة، تلك التي نشرتها دار الشعب بالقاهرة، دأب على شراء أعدادها المتسلسلة، ثم جمعها وجلدها له الحاج "أمين" في مطبعته القريبة، الواقعة في شارع "الدحورة".

ابتسم متذكرا أول عشرة أعداد اشتراها من الليالي بنصف جنيه، وحملها إلى عروسه أميمة، بعد زفافهما بأسابيع، تطلعت العروس للكتاب، مطت شفيتها متعجبة من إنفاق ثمن كيلو لحم على ورق. حاول أن يفهمها ما فيها، فانشغلت عنه بتجهيز الغداء، الذي كان ساعتها فته لحم بالثوم، فأثر الصمت ليتلذذ بطعم الأرز والخبز الناشف والمرق.

وعندما عاد ليلا من دكانه، متأخرا ساعة؛ وجدها ممسكة بالعدد الأول، تلتهم صفحاته، وبجوارها جهاز الراديو، ييث موسيقى السهرة الخفيفة، قبل نشرة أخبار الحادية عشرة. بحلق متعجبا، فنطقت بصوت مختنق بالدمع، عن قتل شهريار للبنات العذراوات الجميلات، متسائلة عما يمكن أن تفعله شهرزاد، مع الملك، وسيأفه "مسرور"، الرابض خلف باب حجرته.

أشار إلى بقية الأعداد، ذاكرا أنها ستعرف السبب عندما تتابع القراءة، وأن شهرزاد ستنقذ بنات حواء، وستنجب من شهريار الأولاد والبنات.

- أهلا وسهلا أستاذ بكر.

- صبحك الله بالخير والسرور يا شعبان.

جلس الأخير على مقعد الحلاقة، عابثا بشعره الأشيب المتهدل على جبينه. أكمل شعبان قهوته، وغسل الفنجان في حوض الماء في ركن المحل، متأهبا لساعة عمل معتبرة، فطلبات الأستاذ كثيرة؛ حلاقة شعر وذقن، وتوضيب شاربه الكث، ناهيك عن نتف شعيرات الوجه بالخيط، بحركة يتألم لها بكر، ثم يطلب المزيد، كي يزداد وجهه نعومة.

لاشك أن "بكر" ملح "شعبان" من شرفة شقته المطلة على الشارع، فسارع بالنزول، فهو الموظف بالمعاش منذ سنين، وتعيش معه في الشقة حماته، والعلاقة بينهما دوما متوترة، فبكر صعيدي أجبرته الوظيفة -في مصنع النسيج- على مغادرة قريته في سوهاج، لتطيب إقامته هنا في البلد، مقررا أن يتزوج من أهلها، ضاربا عرض الحائط بنات العم والخال.



وبسبب أزمة الشقق زمان، ولأن حماته تعيش وحدها مع ابنتها العروس، فقد عرّضت عليهما السكن معها، ليؤنسا وحدتها، وتفرح بأحفادها، الذين تتابعوا بتتالي السنين.

شتانَ بين طباع الاثنين؛ حماته قاهرية الأصل، تعيش في شقة واسعة، ذات غرف أربع، وأرضية باركيه؛ وبكر مزاجه حاد، ولهجته صعيدية لم تؤثر فيها عوادي الزمن، ولا المسلسلات التي يدمن مشاهدتها، ولا برامج الأبيض والأسود التي تتتابع أمامه على مدار اليوم، من قناة ماسبيرو زمان، مستعيدا بها ذكريات قديمة.

خرج بكر في المعاش المبكر، بعد بيع المصنع، ليجد نفسه ماكثرا مع حماته طيلة اليوم، أما زوجته "كوثر"، فهي مثل رجل المطافئ، تصب الماء البارد على العراك الساخن، بين زوجها وأمها.

اكتفى بكر بسفره الشهري إلى البلد، ليزور من تبقى من أهله، ويطمئن على بيت العائلة المغلق، ويأخذ إيجار الأرض.

فرد شعبان الفوطة البيضاء على صدر بكر، محكماً لفها حول رقبته، ثم تطلع في المرأة إلى ملامح وجه زبونه الشاحبة؛ عيناه حمراوان غامتان، ومزاجه متعكرا، ففضّل البدء بتشذيب الشارب الكثّ، فقد انتصبت شعراته نافرّةً، ثم همس ضاحكا، وهو يمشط الشارب، وفيه آثار من حليب الزنجبيل:

- أنت مخاصم "شنبك" يا حاج بكر؟

انتبه الثاني للكلمة، انتفخت أوداجه، ولولا ابتسامه شعبان المصحوبة بتلاعب حاجبيه، لكانت معركة، يتناسى فيها عشرة ثلاثين سنة مع حلّاقه الأثير، وقد بادره بسؤال:

- هل سمعتَ يا حاج بكر حكاية "شارب بسبعة جنيهات"؟

هزة رأس بكر بالنفي؛ جعلت المقص يضرب بيد شعبان، وهو يضبط شعر رأسه الخلفي، ويحفّ جوانبه؛ بها بعض السواد المختلط بشيب، تطايرت شعيرات على معطف شعبان الأبيض، الذي حكى:

- كان عنوانا لخبر في صفحة الحوادث بجريدة الأخبار، في سنوات السبعينيات، وقد وقفْتُ في الشارع ساعتها، لأقرأه، وكدتُ أستلقي على قفاي من الضحك، والناس يضربون كفا بكف، وهم يشاهدوني أخفي وجهي بالجريدة، لأنتم قهقهاتي.

سكت ثم نثر قطرات الماء على الشعر الأشيب، تأفف بكر لبرودتها، وأكمل شعبان، ويدها تلعبان بالمقص والمشط الصغير، فتساقط الشعيرات:

- الحكاية يا حاج بكر كانت يوم الخميس، أول الشهر، وكان الأستاذ عبد الجليل الموظف في السكة الحديد، قد قبض الراتب، ومرّ على الفاكهاني والجزار، فاشترى برتقالا ولحما، وحملهما في كيسين ورقيين. شاهد محل حلاقة خاليا، فآثر أن يحلق، ليقضي عطلة الجمعة رائق البال. وكما أقرّ بعد ذلك، فالحلاق كان ماهرا، وهو يقصّ شعر الرأس، ثم عرض أن يضبط له شاربه، ليكون مثل شوارب باشوات زمان، فوافق عبد الجليل، وهو الصعيدي الأصيل، وانتفخ عندما رأى شاربه وكأنه الملك نفسه.

التفاتة من شعبان إلى خارج الدكان، جعلته يخطو خطوات، ممسكا المقص والمشط، كان "حسنين" تاجر الطرشي، يفتح محله، وما إن سمع صوت شعبان يصبح عليه، حتى نادى على العامل عنده، ليجهز برطمان الزيتون الأخضر، مع الفلفل الحار. رفع شعبان يده بالتحية شاكرا، قبل أن يلج المحل ثانية، معذرا بأنه أراد تذكير الحاج حسنين، بما تحبه زوجته، التي تعشق الزيتون المخزون المشطشط، خصوصا إذا كان قطعة أول الموسم.



تحسس قفا زبونه، بعدما حَفَّ شعره، وحكى:

- المهم يا حاج بكر؛ الموظفُ شكر الحلاق، ثم سأله عن أجرته، فأخبره وهو يُجلس زبونا آخر على المقعد بأنها سبعة جنيهات. تصلبت عينا الموظف، وأمسك لسانه، فالزبائن قد ملأت كراسي المحل، وقد يكونون شاهدين على معركة تنتهي بعاهة للحلاق.

- والله لو كنت مكانه ما نجا من كَفِّي، أجرة الحلاقة ساعتها لا تزيد عن جنيهه.

- الموظف أخرج محفظته، وعدَّ الجنيهات السبعة، وناولها الحلاق، وراح لقسم شرطة الأزبكية، وقدّم بلاغا، فأرسلوا شرطيا للحلاق. الغريب يا حاج بكر، أن الحلاق حضر، وكان باردا وهو يقول: الأستاذ عبد الجليل طلب شنب باشوات، وهذه أجرته، واشتغلت في توضييه ساعة، والبلدية تقول: كله حسب الاتفاق مع الزبون.

تلاعب بكر بشاربه، متحسسا طرفيه بأصابعه، متذكرا شارب الملك ذا الطرفين المدبين، وهو على قناعة أنه لن يتورط مثل عبد الجليل، وإلا "سيطخ عيارا ناريا للحلاق إذا استغفله". سكتته، ثم استحضر شعبان أغنية عرس شعبي، مصفرا بلحنها، ورددتها الاثنان:

يحيا أبوها وشنبه، اللي محدش غلبه..

يحيا أبوها ورمش عينيه

الى محدش مشى عليه

يحيا أبوها وخالها، اللي ودّوا عزالها

رفع الفوطه، ونفضها جيدا، قبل أن يعيد وضعها على ظهر بكر، الذي
تمتم:

-حماتي طلّعت عيوني، ولولا حبي لكوثر، كنتُ "طفشت" منها.

ضرب مقصه في المشط مرات، ليتأكد من تطاير الشعيرات منها، قبل
أن يضعهما على الرف الزجاجي، ثم أمسك بماكينه التنعيم، ليمشي بها
على القفا.

-شفتَ جحا لما جاءه رجل، مشتكيا فقره، وأنه يعيش في غرفة ودھليز
مع زوجته، وستة أولاد، وحماته!؟

ردّ بكر بعصبية: -لو قتل حماته؛ يرتاح.

نكشه شعبان: -ولو زوّجها يرتاح أكثر.

ضحك كلاهما، ثم حكى بكر عن فيلم الحموات الفاتنات، وغرامه
بمونولوجات إسماعيل ياسين الذي كان عريسا، تصارعت عليه الحماتان
ميمي شكيب، وماري منيب، وانتهى الفيلم بإسماعيل راكبا دراجة،
مشتكيا حاله معهما، وغنى:

"حماة زائد حماة يبقو حماتين،

أنا أشوف العمى ولا شوف الاتنين

حماة زائد حما يبقو حماتين"

أمسك شعبان بكرة خيط الكتان بيده، ثم رفع سبابته وإبهامه في
كل يد، وتحرك رأسه صعودا وهبوطا، وهو يلتقط الشعرات الشاردة في
الجبهة، وأسفل العينين، وعلى الأذنين. ثم واصل الحكى:

-جحا قال للرجل، الحل أنك تحضر حمارا، وتربطه في الدهليز، وتكون



شفيقا رحيمًا به، وإلا غضب عليك المولى سبحانه. الرجل قال: بسيطة، سأدخل حماري من أمام الدار، إلى الدهليز، لعل وعسى. أسبوع، وعاد الرجل لجحا، يشتكي، ف "الحال يسوء أكثر".

هز جحا رأسه، وقال: فيه حل آخر، أعطيك خروفا من عندي، تربيته مع الحمار لعل الله يرضى عنك. فرح الرجل، وظن أن الخروف هدية، ولكن جحا شدد عليه أن لا يذبحه، وجرّ الرجل الخروف من زريبة جحا، وفرح أولاده به، وتمنوا تذوق لحمه.

علّق بكر متعجبا:

- الرجل، وامراته، وعياله، وحماته، والخروف، والحمار، صاروا في بيت واحد!؟

نثر مزيدا من البودرة على الوجه، وقطع خيط كتان جديدا، وأكمل:
بعد أسبوع، الرجل عاد لجحا، وقال له: يا حكيم البلد، لم نعد نطبق مخلفات الحمار والخروف، والأولاد ضجّوا. طأطأ جحا رأسه، وقال: إذن، أخرج الحمار خارج الدار، لعل وعسى. أيام وعاد الرجل مبسوط الوجه، وقال: والله يا جحا، الحال تحسن قليلا. فهتف جحا: احمد ربك، وهات الخروف عندي للزريبة. وبعد يومين، عاد الرجل فرحا، وهو يقول: الحمد لله، صرنا في أحسن حال، وقد طبخت امرأتي عدسا شهيا، ووجدت حماتي تحمل العيال سعيدة. صاح به جحا: ادخل الزريبة، وخذ الخروف واذبحه لعيالك.

تحسس بكر وجهه الناعم، وشعره المخلوق، معلقا بتؤدة:

-جحا فعلا حكيم.

هتف شعبان: -نعيمًا يا عم بكر.







"تحلو القهوة مع الضحى"، حمل فنجانها، مفضلا أن يكون مقعده في بقعة الشمس أمام الدكان، رائحة البحر تعبق أنفه، ممتزجة مع رائحة البسبوسة بالسمن البلدي، التي يعدها الحاج شيحة في محل الحلويات أمامه، وبجواره اثنان من أولاده.

يتذكر شعبان مساء كل خميس، كانت ابنتاه وهما صغيرتان تنتظرانه، لتفتحا اللقّة الورقية التي يحملها؛ وفيها تشكيلة الهريسة والبقلوة والبسبوسة وحمّص الشام؛ أعدّها له الحاج شيحة بنفسه.

تجذب اللقّة ابنته الصغرى "حنان"، تفض خيوطها الملونة، ثم تزيل ورق السوليفان، حتى إذا وصلت إلى العلبة ذات الورق المقوى، فإن أناملها الدودية تجوس وتصول في الهريسة، قبل أن تلحقها أختها الكبرى حسناء. احتكرت أمهما أليفة تسميتهما عند ولادتهما، بقوة نفوذها.

في هذا المشهد، لا يُسمع صراخ الأم، التي أحضرت أطباقا صغيرة، ظلت نظيفة، بعد هجوم البنّتين على اللقّة، ولم ينل الأب منها إلا خليطا من فُتات الحمّص مع البسبوسة، وإذا ظفر بقطعة كاملة؛ يضعها في فم زوجته، التي تقبل أصابعه، ثم تلوك القطعة وتذيبها في فمها.

أحكم نظارته، بعدما أمسك بكتاب لابن الجوزي، متفحصا بعناية غلافه المجلّد. تذكر أنه اشتراه من تاجر أنتيكات في السيدة زينب بالقاهرة، بعدما أقسم أن الكتاب طبعة نادرة، من القرن التاسع عشر، في مطبعة شامية.

ساعتها بحث شعبان عن اسم المطبعة في الكتاب العتيق، فلم يجده إلا أسفل الفهرس، بخط صغير "مطبعة الأميركان"، بيروت العام ١٨٧٠. أوراق الكتاب صفراء، وإن لم تهترئ، والخط متعرج واضح، يبدو أنها

كانت مطبوعة حجرية، هكذا أعلمه الحاج أمين، عندما تفحص الكتاب، قبل أن يجلّده بغلاف متين، ثم طبع على كعبها، وعلى الغلاف الأمامي عنوان الكتاب، وطبع أسفله "مكتبة شعبان زيد"، ليحتل الكتاب موقعا ثابتا على الرف، لن يتغير بمرور السنين.

من كثرة قراءته، يكاد شعبان يحفظ أسطره وأرقام صفحاته، فضلا عن القصص التي زخر بها، وكلها عن أخبار الحمقى والمغفلين، هكذا تعنّون الكتاب، وهكذا ارتسمت الابتسامة على وجهه، وهو يقرأ الفقرات المنثورة، ويترنم بالأشعار الموزونة.

-مَن ابن الجوزي؟

انتبه شعبان على من يقف خلفه، قارئًا غلاف الكتاب العتيق.

- أهلا شريف.

- هل كان أبوه قهوجيا، يقدم الجوزة؟

قطّب شعبان حاجبيه أمام الشاب الأهوج، وعينيه التائهتين بين الكتاب والشارع، وكفّه في جيبه، كأنه يحتفظ بشيء ثمين. أجاب شعبان ببرود اعتاده كلما هبط عليه شريف، وهو يعتلي دراجته متجولا في الحيّ:

-لا يا بنيّ، اسمه أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن، وتلقّب بالجوزي، لشجرة جوز كانت مغروسة في وسط داره في مدينة واسط بالعراق.

هتف شريف:

-أنت حلاق، أم أستاذ خوجة يا عم شعبان؟



تساءل شعبان، بعدما تخيل نفسه ممسكا بلمونة يعصرها على رأسه:

-ماذا تبيع اليوم؟

أخرج شريف ورقة خضراء، ولوّح بها، وكأنه يُعلِّمُ الرائح والغادي:

-معي عشرة دولارات، سأتاجر في "الأخضر".

ثم امتطى دراجته الملقاة على الرصيف، منطلقاً بها، رافعا ذراعيه عن المقود.

وجهه غير مألوف، دخل المحل بهدوء، وجلس على الدكة الخشبية في المحل منتظرا دوره في الحلاقة. دعاه شعبان للجلوس على كرسي الحلاقة المعدني، مرحّباً بعبارات اعتاد قولها إذا كان الزبون جديداً، أشار الزبون إلى رأسه، قائلاً:

- حلاقة شعر بَسْ يا عم شعبان.

شعره أكرت جاف، يستلزم نثرات الماء عليه، وهكذا بَخَّ قطرات الماء، ثم تفاجأ بالزبون يسأله عن الشاب تاجر العملة، فردَّ بإيجاز:

- كل أسبوع يتاجر بشيء مختلف، مرة قفة خضار، ومرة مجلات وجرائد، الله يسهّل أموره. ولكن، كيف عرفت اسمي؟

- أنا "حسين" ابن الأسطى "إمام".

تطلع شعبان إلى الشاب الثلاثيني بهندامه الأنيق، قبل أن يبسط الفوطة عليه، شتان بين ملامح الشباب، وتجاويد الشيوخ، ولكن من شابه أباه فما ظلم.

-الله يرحم والدك! كان أحسن صانع أحذية في البلد.
-عملتُ طبيبا لسنوات في الخليج، ثم استقررت في مصر، وفتحتُ
عيادة.

أردف الشاب متسائلا:

-تاجر الأخضر حاله عجيب؟

تمتم شعبان:

- وَعِلَاجُ الْأَبْدَانِ أَيْسَرُ خَطْبًا حِينَ تَعْتَلُّ مِنْ عِلَاجِ الْعُقُولِ

وأردف مستعيدا ذكريات أبيه:

- نِعَمَ الرجال كان أبوك.

لم يحتمل الأسطى "إمام" سلاطة لسان صاحبة ورشة الأحذية، التي
كان يعمل بها، في ميدان المبيضة، غادرها وهي تلاحقه بسباب متصل،
وتتفاخر بأنه لن يجد غيرها. هكذا حكى لشعبان عندما جاءه في دكانه
ليلا، وقد تورمت قدماه، بعدما طاف على ورش البلد.

-يا شعبان، أبي عاجز منذ سنين، وإخوتي في رقبتى.

- نتعشى يا إمام ونشرب الشاي، وباكرا تروق وتحلى.

سندويشات الفول، مع فلفل حار، من قدرة "ربيع"، التي يقف بها
على ناصية حارة الدباغين، وقد رُصت بجواره كراسٍ وطاولات، جلس
الاثنان على مقعدين في الزاوية، وطلبا شايًا من الولد "شمعة"، الذي بنى
"نصبته" في ركن بالحارة، وجعلها أشبه بمنصة المقهى؛ شعلة غاز موصولة



بأنبوبة، وأرُفِفَ عليها الأكواب. يكتفي مَن ينادي عليه، فيجّهز الطلبات، ثم يطير بها على صينية، "والحساب فوري، أو على النوتة، والناس كلها حبايبه"، هكذا يقول.

الفلفل مع الفول جعلاهما يصرخان من السخونة والشطة، احتسبوا أكوابا من الماء البارد، قبل أن يحبسا بالشاي، غرق "إمام" في الضحك، وهو يسمع شعبان ينادي على "ربيع" أن يحضر المزيد من السندويشات، ف "القط يحبّ خنّاقه"؛ هكذا برطم شعبان، وهو يأكل الدفعة الثانية، ويرتشف كوبا آخر من الشاي المنعنع، ثم نظر إلى إمام، هاتفا:

- لماذا لا تفعل مثلهما؟

-مثل مَن؟

-ربيع وشمعة، اعمل "نصبة" في الشارع، وعندك "العدّة"، واشتري ماكينة مستعملة بالقسط.

اتخذ "إمام" ركنا بشارع الشط، عند محلات الصاغة، بالقرب من سوق الخضار، تلاحقَ عليه أهل الريف القادمين -عادة- يومي الثلاثاء والجمعة. عرفته نسوة الحي، فأرسلن إليه أولادهن، حاملين الحقائق والأحذية الممزقة، يرتق النعل، ويخيطن الجلد، ويلمّعه، ثم يسمع صيحات الولد، وهو يرى حذاءه لامعا زاهيا، كأنه خارج من علبته.

سنة مرت، ثم استأجر محلا وسط السوق، أحضر القوالب الخشبية، يشدّ عليها الأحذية، حسب المقاس، وكان عمّاله هم "الطافشين" من سلاطة لسان صاحبة الورشة القديمة.

تطلع حسين إلى شعبان، وقد اغرورقت عيناه، بعدما تذكر جنازة أبيه
الحاج "إمام"، من سبع سنوات، كان مشهده مهيبا، فما أكثر من أحسنَ
إليهم!

-معي الأخضر، تشتري دولار.

كلاهما نظرا إلى شريف، الذي أوقف دراجته ثانية على عتبة المحل،
ولوّح بثلاث ورقات من فئة العشرة، معلنا أنه يبيع أرخص من البنوك
ومن تجار العملة "تحت السلم".

كأن المقص يتهدى في شعر "حسين" المبلول، يتمتم شعبان أن والده
"إمام" لم يكن يحلق شعره إلا إذا طالت سوافه، وامتلاً قفاه شَعْرًا. حانت
التفاتة منهما إلى الشارع، ثمة مخبر ممسك بشريف، والثاني يحلف أن لا
أخضر معه، والمخبر يبشّره بزرقه لياليه.

بتؤدة يحكي شعبان:

-يحكي ابن الجوزي عن الجصاص الأحمق، الذي اشترى بطيخة، وأراد
إهداءها لصديقه الوزير العباسي الخاقاني، فذهب إليه في قصره المطل
على نهر الفرات، ولأن الجصاص، كان مصابا بالبرد، فكثرتنخّمه وبصاقه،
فقرر أن يهدي البطيخة أولا، ثم يستدير ليصق في منديله.

لكن نخامته سبقت البطيخة، وطارت في وجه الوزير، وسقطت البطيخة
في النهر. انتفض الوزير، وشهر الحراس سيوفهم، فارتاع الجصاص، وانحنى
بين يدي الوزير، يسأله السماح بصوت متهدج بك، وقال مضطربا: "أردت
أن أهديك النخامة، وأبصق البطيخة"، فأشار الوزير لجنده أن اطرده،
وهو يقول: أخطأت الفعل، والاعتذار، يا أحمق.



جلس شعبان على الدكة الخشبية، مريحا قدميه، تأمله حسين في المرأة، وتذكّر كيف كان يُجلسه عم شعبان على لوح خشبي، يضعه على ذراعي كرسي الحلاقة، وأبوه الأسطى إمام واقف بجواره، وقد أمسك رأسه، خشية أن ينزلق المقص أثناء الحلاقة.

تنهّد شعبان، قائلاً:

-حكى لي أبوك الله يرحمه، أن عاملاً اشتغل عنده، فطلب منه صنع حذاءين؛ حريمي ورجالي، فبدّل العامل النعلين فوضع هذا مكان ذاك، وخاط عليهما الجلد. وما حضرت الزبونة، لم تشتك لصاحب المحل كي يصلحهما، بل وقفت "تشلق وتردح" وسط الشارع، وعيالها جنبها، وسبحان الله، هي مثل "العنز تدور العشاء، والعشاء في ظهرها".

أكمل شعبان:

-زوجها، كان بائع خضار في السوق القريب، حضر، وراح يولول معها ويضرب رأسه، وتجمّع السوق كله، وصارت فضيحة، فصدق المثل عن زوجها بأنه "زَيّ رَجُل المرفع لا يضر ولا ينفع".

فغر حسين فاهه متعجباً، فأكمل شعبان:

-طلب مني أبو شريف أن أعلم ابنه الصنعة، بدلا من "المرمطة" في الدكاكين، فبدأت أعلمه حلاقة الذقن. جاءني أبوه، وطلب أن يحلق له ابنه، وتشجع الولد، وركب على كرسي الحلاقة، واشتغل بالموسى في وجه أبيه، ولما تنحى عنه، كان الدم يسيل بين الخدين. فطلب أبوه مني خمسة جنيهات، عوضاً عن ذقنه المجروح.

أمسك شعبان بالـ "سيشوار"، وحركه، ليطيّر ما تبقى من شعرات،
قبل أن يزيل الفوطة، وهو يختم حكاياته:

- جاء رجل للقاضي مشتكيا ابنه الأحمق، وطلب من القاضي أن يحجر
عليه، فلن يورّثه مالا. فسأل القاضي الفتى إن كان يحفظ آيات من القرآن،
فقرأ الفتى بخشوع:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فانتفض الأب مقبلاً ابنه، وقال للقاضي:

-دعه يقرأ آية أخرى، ولا تحجر عليه.

فقرر القاضي الحجر على الاثنين.







طرقات على زجاج باب المحل، ابتسم دون أن يلتفت، عرف مَنْ الطارق، فهو الزبون الوحيد الذي يفعل ذلك، هتف مرحباً:
- أهلاً أستاذ جاسر.

مصافحة حارة، قعد جاسر على كرسي الحلاقة، متأملاً وجهه في المرآة؛
ثمة شعرات بيضاء تغزو سوافه، تمتم أن العمر يمضي، فردّ عليه شعبان:
- ما العمر إلا ذكرى، وما الذكرى إلا فعل طيب.

تطلع جاسر إلى الحلاق الأشيب، وهو يبسط فوطة نظيفة على صدره،
وقد تقاربت أنفاسهما، فتنسّم المسك من ملابس شعبان، فاستفسر من
أين اشتراه، فأجابه:

- من سوق العطارين في الحسين بالقاهرة.

وأردف، وهو يصفف الشعر بمشط بلاستيكية رقيقة، قبل الشروع في
قصّه:

- أنا مغرم بالمسك، والمبخرة في بيتي دائماً فوّاحة ببخور ممزوج بعود
وعنبر.

- ولماذا المسك؟

- هذا كئبان الجنة، ورسولنا (ﷺ) يقول: أَطْيَبُ الطَّيِّبِ الْمِسْكِ.

تساقط الشعر الغزير، وشعبان يتلاعب بمقصه، فعادته التي ألفتها
زبائنه، ألا يستخدم الماكينة السريعة التي تزيل الشعر في دقائق، وكما
يصفها شعبان بأن حلاقتها أشبه مبرقة الدجاج، تعطي المذاق والرائحة،
ولا تغني عن مرق اللحم الأصلي، ثم أكد أن الحلاقة فنٌّ ونَفَسٌ، والحلاق
الماهر، من يقرأ الشَّعْرَ، قبل أن يبدّ مقصه، فالشعر الأكرت يختلف عن

الغزير، وكل زبون له هواه، في تسريحته، والشاب غير الشايب، والصبي غير العجوز. أكمل موضحا:

-المسك الأصلي من الغزال، وليس أي غزال.

-كيف يا عمي؟

-وقع في يدي كتاب قديم، اسمه "طيب العروس وريحان النفوس"، لعالم من القرن الرابع الهجري، اسمه أبو عبد الله محمد التميمي، يقول إن أفضل المسك يأتي من غزلان الجبال، وهو دمّ متجمع في "سُرّة" الغزال. الغريب أن الغزال يشمّ رائحته، فيفتن بها، ويظل يبحث عنه بين النباتات والصخور، ولا يعرف أنها في بطنه، فهو مثل الأحمق، يبحث عن السعادة، ولا يعرف أنها في قلبه.

تجمّدت عينا جاسر، وعكست المرآة تشوّقه للمزيد، فأكمل الثاني باسمًا:

-أبو عبد الله التميمي يذكر في كتابه؛ أن الغزال يغتاز من تزايد الدم في سرّته، فيحكّها، فينتال دمه على الصخور، ثم يجفّ، وتنفوح رائحته، فيأتي الصيادون ويأخذونه، ويبيعونه للملوك.

-سبحان الله!

-أطيب المسك وأغلاه يأتي من الغزال البرّي، وسُرّة الغزال مثل الدّم، إذا أخرجت الدم، عادت لتمتلئ به من جديد. والعجيب أن هناك غزلانا تغتاز في بحثها عن مصدر المسك الذي يملأ أنوفها ولا تجده، فقد تهوي من قمة الجبل إلى السفح، وتموت، فيهرع إليها الصيادون، ويفرغون دم المسك من كيس سرّتها، ثم يذبحون الغزال، ويتلذذون بلحمه.



أضاف:

-أميمة زوجتي وحماتي؛ تعشقان العود والمسك والبخور.

كانت هدية حماته في صباحية زواجه علبة كبيرة، ملفوفة بخيوط حريرية. هتفت أميمة وهي تفض غطاءها: إنها مبخرة، وعطور، وبخور العود والعنبر والصندل ومعها قنينة مسك.

دقائق، وعبّقت -فضاء شقته المؤلفة من ثلاث غرف وصالة-؛ سحب البخور، متصاعدة، مكونة هالات حول مصباح النيون الأبيض، وسط سقف الصالة.

انسابت أغنية عبد المطلب، "ساكن في حي السيدة، وحببي ساكن في الحسين"، من محطة البرنامج العام في المذيع. ناولته أميمة علبة أخرى، وأصرت أن يفتحها بنفسه، فاستقرت في كفه زجاجة دهن العود، وإن فشلت محاولاته لإخراج شيء منها.

بيد خبيرة، تعاملت عروسه مع رأس الزجاجة، فاثالت على أصابعها قطرات، سرعان ما نثرتها على وجهه، ورقبته، ليتنسم رائحة فريدة، مع تمتات زوجته بأنها مزيج من العود والعنبر. أعاده العطر والبخور إلى ما حفظه من شعر، وما قرأه من قصص. انتبه على صوتها، تعيد أغنية الحسين والسيدة، فوجد لسانه يتغنّى ببيت عنتره:

دَارٌ يَفُوحُ الْمِسْكَ مِنْ عَرَصَاتِهَا وَالْعُودُ وَالنَّدُّ الذِّكِيُّ جَنَاهَا
دَارٌ لِعَبْلَةٍ شَطَّ عَنْكَ مَزَارُ وَنَأَتْ لَعَمْرِي مَا أَرَاكَ تَرَاهَا

استنشق جاسر عطرا آخر، رشَّه شعبان على وجهه، كان عبْقًا برائحة الليمون، ثم تسابقت أصابعه؛ تنثر ماء العطر خلف الأذن، وعند الرقبة، ثم همس:

-طمني يا جاسر على صحة الست "تحية".

-بخير ولله الحمد. السنُّ أقعدها، وبناتها يخدمنها.

-الله يرحم زوجها "غانم بك".

كان غانم بك من الزبائن القلة الذين يذهب إليهم شعبان ليحلق لهم في بيوتهم، عندما يطرق باب الشقة، تفتح له إحدى بناته الثلاث، وتقوده إلى غرفة الصالون، ثم يأتي والدها مرتديا الروب الحريري، متسندا على عصاه المصنوعة من خشب الأبنوس، وعليها زخارف هندسية نباتية. شعره أشقر لامع مع شيب بسيط، وجهه بملامح تركية؛ ورثها عن أجداده، الذين امتلكوا عزبة، أرضها "يمرح فيها الخيل" كما كان يفتخر دوما.

تقع شقة البك في عمارته الفاخرة وسط شارع الرملة، فإذا جلس في شرفتها؛ حيًّا شعبان -في دكانه- رافعا ذراعه، ثم يمكث على مقعده، متأملا الناس الساعين على أرزاقهم، وإذا مدَّ بصره أكثر، رأى مياه النيل، في البحر الواسع المخترق المدينة، متوغلا إلى الحقول حولها.

حكي عن سنوات عمله الطويلة وكيلة لوزارة المالية في المحافظة قبل تقاعده، وتباهى مرات بيعته لسنوات أربع لنيل الماجستير في المحاسبة بكلية الاقتصاد بلندن.

-ولماذا تزوجت متأخرا يا غانم بك؟ بناتك لازلن صغيرات.



- زوّجتي "تحية" ابنة خالتي، وقد تأخرنا في الإنجاب أكثر من عشر سنوات.

- ربنا أكرمك بزوجة وبنات؛ كلهن مثال في الأدب والعلم.
- تمّنت ولدا، يتابع أرض العزبة، ويقضي مصالحنا، فالعائلة كلها عجائز.

تمّتم داعيا بطول العمر، والصحة، وهو يرتب أدوات الحلاقة في حقيبته الجلدية، ثم احتسي كوب العصير المثلج الذي استقر في صينية على طاولة بجواره.

تناهت إلى سمعه صرخات واهنة، يعرف الصوت جيدا، إنها الست "تحية" تقف في الشرفة، ألقى مقصه، ركض، ارتقى سلم العمارة، باب الشقة مفتوح، البنات الثلاث يبكين بحرقّة، وقد لفن رؤوسهن -في عجلة- بطرّحٍ غامقة. أشرنَ له، فدخل إلى غرفة النوم.
"غانم" مسجى، وجهه ناضح بالرضى. تلمّسه، كفاه المعروقتان باردتان، وذراعه متدلّية.

صعد عدد من الموظفين من شركة التجارة العامة، من مقرها بالطابق الأرضي في العمارة. تقدّم شاب، خافضا عينيه، استأذن من بناته للتأكد من الوفاة، فلديه خبرة اكتسبها من عمله سابقا في مستشفى خاص.

غطّى الوجه، خرج معلنا -والدموع بعينيه- أن الوجه يحمل سكينه وبشرى على حسن الخاتمة، "فلنسلّم بقضاء الله، ولنعكف على الدعاء".

تماسكت الست "تحية"، سألته عما يجب عمله، تحدّث بصوت خفيض؛ أنه سيذهب إلى مكتب الصحة، لإحضار طبيب للمعاينة، قبل استخراج تصريح الدفن، ثم تتم أن عليها أن تستريح، وسيقوم بالإجراءات. قبل انصرافه، توجه إلى جهاز التسجيل الموضوع جانب التلفاز، فوضع شريطا صوتيا؛ فانسابت آيات قرآنية بترتيل الشيخ المنشاوي، ملأت السكون الحزين الذي غلّف المكان. البنات ارتدين عباءات سوداء، وبكين مع أمهن.

أشار الشاب إلى الرجال المتجمعين للخروج، والجلوس أسفل العمارة إلى حين.

ربت شعبان على كتف الشاب، واستأذن للذهاب، فقالت له الست تحية:

-كن معنا يا عم شعبان.

- سأغلق الدكان، ثم آتي لأجلس في الطرفة، أمام باب الشقة.

تفحص الطبيب الجثمان في دقائق، ثم سارع بملء أوراق عديدة، سلّمها إلى الزوجة.

تمتم الشاب، وهو يراجع الأوراق، بأن هناك أختاما ناقصة، أجاهه الطبيب أن عليه العودة لمكتب الصحة، لاستخراج التصريح، وأخذ الأختام النهائية.

-انتظر يا بني.



استمهلّت "تحية" الشاب، وهي تلج غرفة النوم، وتخرج من الدولاب أوراقا مالية كثيرة، تساقط بعضها أرضا، ناولتها للشاب، ودموعها مثالة. انتحى الشاب بعم شعبان، مسارعا بعدّ المبلغ أمامه، متمتما بأنه سيقوم بكل شيء.

حضر الغسل شعبان، مكث جانب الجثمان يرتل القرآن، حتى حُمِلَ على الأيدي ثم استقر في النعش. تحرّك المشهد، كان أهل الشارع قد تجمعوا، للصلاة عليه في جامع "المغازي"، ومنه إلى المقبرة، الكل يسير في سكون، البنات والأم في المؤخرة، ومعهن عدد من نسوة الجيران.

مساء، وفي الحارة الجانبية، صيوان منصوب، وقف شعبان بجانبه الشاب، يتلقيان العزاء، وملأ التجار وأصحاب المحلات المقاعد المتراصة، لم يحضر أحد من الأقارب.

جذب الشاب عم شعبان، وناوله كيسا بلاستيكا كبيرا، به علب ورقية، وتمتم بأن هذا عشاء، فبناته وزوجته خاوية بطونهن طوال اليوم، أصرّ شعبان أن يصعد معه.

في غرفة الصالون، جلسن جميعهن، أخرج الشاب ورقة دونّ فيها المصاريف، ثم ناول الست تحية رزمة مالية مرتبة ومربوطة. تطلعت إليه الأم بمآقٍ دامعة محمرة، وهو يعدد ما أنفق، وما تبقى. قاطعته شاكرة، أنها لا تعرف كل هذا، فالمرحوم كان يتولى كل شيء، ثم سألته عن اسمه، فأجاب خجلا: جاسر، أشغل موظفا في الشركة العامة في الطابق الأرضي.

-تعال معي يا عم شعبان، نزور الست تحية.

إنه وقت الظهيرة، والمحل خاو، وشعبان يحتسي فنجان زنجبيل بالنعناع.

-خير يا بني.

غسل الفنجان، ووضعه على الرف، ثم أغلق الباب الخشبي الزجاجي. في الصالون، جميعهن حوله، قدّم جاسر ملفا به أوراق نقل معاش المرحوم إلى الزوجة والبنات، ثم أعلمهن أنه اتفق مع إدارة المعاشات أن يأتي الموظف بالمعاش إلى البيت، حتى لا تُرهق الحاجة في الحضور، والوقوف في الطابور.

صمت الشاب، ثم أخرج مظروفا كبيرا تمتم أن به إيجار الأرض، وريعها، وأن المزارعين ترخّموا على غانم بك، وطيبته.

-أتعبناك يا بني، وعطلناك، البنات لا يعرفن إنجاز شيء.

استأذن، وكعادته، خرج ماشيا منكس الرأس، خفيض العينين.

التفتت تحية لشعبان، وهمست:

-أرسلت حارس العمارة لينادي عليه، نحتاج لمن يقضي حوائجنا، ولكن جاسر أقسم أن لا يأخذ جنيتها واحدا. ليتك تحدّثه؛ تعب كثيرا لأجلنا.

أحنى شعبان رأسه، وهمس بأنه يريد الحديث مع الحاجة على انفراد، فانسحبت البنات.

-أخبرني جاسر بحرجه، فلا يصحّ أن يصعد إلى شقة كلها حريم، أمام الموظفين والجيران.



-لا حيلة بيدنا.

-أترؤجه أنا.

بحلق شعبان في وجه "صفاء" الابنة الكبرى، بعدما حضرت حاملة القهوة، واستمعت لشطر الحديث مع أمها. خفضت رأسها، وهي تردد:
-هو مؤدب، عرفناه في الجنازة، وماما سألت عنه، فمدحه موظفو الشركة.

أشرق وجه الست تحية، فقد ألمحت مرات لابنتها، مستشعرة بحاسة الأنتى إعجابا بينهما، ولكن الأم تصنعت الجدية، وهي تناكش ابنتها:
-هو دبلوم تجارة، وأنتِ خريجة كلية الحقوق، وعائلتنا عريقة.
الحياء أشعل وجه البنت حمرةً، قبل أن تغادر الصالون، واصلت تحية الحديث مع شعبان.

تفاجأ جاسر بشعبان ينتظره عند خروجه من باب الشركة، كان يضحك زملاءه، دعاه شعبان لفنجان زنجبيل، حتى تنتهي زحمة الشوارع.
تصلبت عيناه منصتا لشعبان، صمت مستحضرا "صفاء" بحيائها، عندما زارهن مرات، تحمّل تقاطيع وجهها سكينهً، وقد ورثت ملامح أبيها، وسحنته الشقراء. كان إذا طرق باب شقتهم، يأتيه صوتها ضعيفا، تسأل عن الطارق، يذكر اسمه، فينفلج الباب نصف انفراجة، تسارع بمناداة أمها، بينما يظل جاسر واقفا في الطريقة، رافضا دعوتهم للتفضل في الصالون، يصرّ أن يحادث الأم على باب الشقة، وقد أعلمهن ذات مرة أن

لديه محلا للتجارة، بحي "البارودية" الشعبي، بجانب وظيفته الحكومية. أخبر جاسر شعبان أن لديه شقة في منزل أهله، وأنه ملتزم بتقاليد المهجر والشبكة والمؤخر، ولا بأس أن يسكننا في الشقة المواجهة لشقتهم، فالعمارة يمتلكها غانم بك.

كُتِبَ عقد الزواج في مسجد المغازي، وكيل العروس شعبان، والشاهدان أحد الجيران، والحاج شيحة صاحب محل الحلويات. اصطف أهل الشارع على الجانبين، يحيون العروسين في السيارة، قبل وقوفها أمام باب العمارة، لينزل العروسان. هي بفستانها الأبيض الوثير، وهو ببذلة سوداء، بخيوط لامعة، صدحت موسيقى هادئة، مع زغاريد سريعة، وحلويات وشوكولاتة ألقتها الست تحية من الشرفة، فتسابق الأولاد عليها، بينما وزّع عمال الحاج شيحة الشربات والبسبوسة، كان شعبان خلف العروسين، ومعه زوجته وابنتاه.

في حلقاته المتتابعة، روى جاسر كيف أنه أخذ إجازة دون أجر من وظيفته بالشركة، وتفرغ لرعاية الأرض، ووسّع تجارته، وعقد شراكة مع الأم والبنات، أن يزرع النباتات الطبية، ويصدّرها، والمرابحة بالنصف. أنهت البنتان الصغيرتان تعليمهما الجامعي، وقام جاسر على تجهيزهما في زواجهما، أما الست تحية، فتفرغت لمداعبة أحفادها.



رَنّ هاتفه المحمول، فأمسك به جاسر، ابتعد شعبان قليلا، فقد كان أن ينهي الحلاقة، ارتفع صوت صفاء، تُعلم زوجها أن الولدين قدما إليه، ليحلق عم شعبان لهما.

دقائق، كان طفلان يذفان إلى المحل، الأكبر في السابعة، والأصغر في الخامسة، ولمح شعبان أمهما تقف في شرفة الشقة تراقبهما. هتف جاسر، بعدما نال قبلتين منهما:

-نبداً بالأصغر "أسامة"، أما الأكبر "غانم" فينتظر أخاه.

تساءل شعبان، وهو يحضر خشبة جلوس الأطفال، التي سيضعها على ذراعي كرسي الحلاقة:

-وأين البنوة الشقية؟

أجابه جاسر، وهو يتحسس شعر "غانم" الذي حمل ملامح جده:

-لو نظرت إلى "البلكوثة"، ستجدها متشبثة بكثف جدتها تحية.

تتابعت ضربات المقص المتتابعة في شعر أسامة الصغير، فيما حكى شعبان قائلاً:

-هل عرفتما قصة الغزال والزرافة؟

انتبه الولدان، فيما وضع جاسر هاتفه جانبا؛ منصتا.

-سأل الغزال الزرافة وهما واقفان عند شاطئ النهر: "إلى أين يصل عمق المياه في النهر؟ فأنا أريد عبوره". قالت الزرافة: "يصل إلى ركبتني". قفز الغزال، فوجد الماء يغطيه إلى رأسه، فجاهد، حتى وصل إلى صخرة وسط النهر، ووقف عليها، وصرخ في الزرافة: ألم تخبريني أن الماء إلى

الركبة؟ ضحكت الزرافة وأجابت: يصل إلى ركبتي أنا.

تساءل غانم:

-وهل ظل الغزال على الصخرة؟

أجابه شعبان:

- ظل الغزال حائرا، حتى وجد الزرافة تسير في النهر، كأنها على البر،
لتنقذه من مأزقه.

ابتسم جاسر، وهم يقول:

-مسكين الغزال، المسك في بطنه ويبحث عنه، لأنه فكّر بعقل الزرافة.



فَلْتَرْوِغُوا
وَنَعْنَعُوا

The text is written in a stylized, calligraphic Arabic font. Below the words, there are decorative elements consisting of thin, curved lines representing stems, with several small, simple leaf shapes attached to them. These elements are positioned under the letters of both words, creating a symmetrical, floral-like appearance.



-لم تتغير يا أسطى "محمود"، تأتي للحلاقة وأنت تلبس "عفرية"
الشغل!

هكذا علّق شعبان متعجبا، وهو يفضّ مغلفا ورقيا به فوطة بلاستيكية،
بسطها على صدر محمود، الذي تئأب مرات، وهو يتأمل هيئته في المرأة؛
ملابس ورشة الميكانيك التي يعمل بها، بما عليه من بقايا الشحم الأسود
والزيوت، وقد اختفت غالبيته خلف بياض الفوطة المبسوطة عليه. أحكم
شعبان تطويق رقبته برباط رقيق، أسفله منديل ورقي ناعم.

كان على محمود الرد، فهو الخبير منذ صغره بمداعبات الحلاق العجوز:
-يا عمي، أتيتُ مباشرة من الورشة لأحلق، ثم أرجع للبيت لأستحم
وأغيّر ملابسي.

-ورحتَ المصنع وأنتَ لابس "العفرية"؟

يضحك محمود، مدركا ما يغمز به شعبان، ويقول:

- اليوم، ليس عندي وردية نهائية في المصنع، فاشتغلتُ في الورشة
طوال النهار.

ثم أغمض عينيه مستسلما للمقص المتهادي خلف الرأس، وفي الحواف
وراء الأذن، ثم انتقل إلى قمة الرأس، وصولا إلى أعلى الجبهة. يأنس محمود
منذ صغره لأصابع شعبان الرقيقة ويحب كفيّ الحائيتين، مثل كفيّ أمه
الست "سيدة" عندما تداعب وجهه وهو يضع رأسه على حجرها، فتُفلي
شعره، ثم تمسك سوائفه التي غزاها البياض مبكرا، وتقول له: "شعرك
يشيب، متى ستتزوج"، يضحك محمود، ويقبل كفيها؛ ممتنا لهاتين الكفّين
اللتين حملتا وربّتا وتعهدتا ولدين وأربع بنات، وكان محمود أكبرهم.

بمّنديل ورقي جفف محمود عرقه، متطلعا إلى سقف المحل، الهواء يتحرك بفعل المروحة المعلقة، فتمزجه مع الرياح التي تهبّ من الخارج، فيتلطف الجو.

وضع شعبان أمامه كوب ماء بارد؛ ملاءه من "القلل" الموضوعه جانب العتبه، في إناء محاط بالخيش، تسنده أرجل حديدية، وبجانباها أكواب عديدة، وعلى كل عطشان أن يشرب كيفما شاء، فإذا أخذ الكوب أو وضعه، ستقع عيناه على لوحه في الجدار، تحمل عبارة الدعاء لوالديّ من أقام هذا "السييل"؛ فأهل الشارع يعلمون أن هذه صدقة جارية منه، وأنه قد آثر وضع قلل الفخار بدلا من البراد الكهربائي، فماء القلّة بارد صحي، إذا نزل في جوف العطشان، لن يضر صدره الساخن، عكس الماء المثلج، الذي إذا تجرّعه الشاربون في القيظ، سيضر الرئتين والقلب.

وهكذا كان يشرح لكل من نعته بأنه "دقة قديمة"، وهو يصب من القلل في الأكواب، ويعلن تفضيله الشرب من قلّة بعينها، يضعها في رفّ أعلى من رفوف بقية القلل، يمسك قلته، ويضع حافتها على شفّتيه، وبتؤدة يتجرّع ماءها، فينزل رقرقا، على دفعات، مرطبا حلقه، ويقول أمام زبائنه المندهشين، "القلّة الفخارية أعظم اختراع للفلاح المصري، لأنها تُبرّد الماء ذاتيا، ويكفي وضعها في الخلاء، لينضج فخارها قطرات الماء، فتترطب القلّة من خارجها، وتُبرّد الماء داخلها".

تعلم شعبان من أمه؛ وضع عروق النعناع في القلل، يبدلها كل يوم أو يومين، هكذا كانت تفعل أمه في "الزير" القائم وراء باب البيت الخشبي الكبير، يهرع إليه السابله وأهل الحارة للشرب، فما أطيّب ماء "أم شعبان"، وما أرطبه! وما أبرده!



أما داخل البيت، فإن هناك "البُقلة" الفخارية المستقرة في حوض المطبخ، أسفل نافذته الصغيرة، ترتشف منها الأسرة طوال اليوم ماء منعنا، تجدده أمه، عقب صلاة الفجر.

دوما يحكي لزبائنه عن تصالح الفلاح مع بيئته؛ في الصيف الحار، يتوارى عند الظهيرة، تحت شجرة ظليلة، يجفف عرقه، يمسك القلّة بفتحاتها الضيقة، فينزل على جرعات متتالية، تبرّد الحنك ثم الجوف تدريجيا، ثم يأكل كسرات الخبز مع أقراص الجبنة القديمة "المشطشة"، أو بعض "المشّ"، وبذلك يعوّض ما فقد من ماء وأملاح أثناء فلاحته للأرض. بعدها يتمدد على مصطبة طينية، بناها أسفل الشجرة، في قيلولة يومية، يصحو منها قبل آذان العصر، يصلي، ثم يكمل عمله في الغيطان، وقبل آذان المغربية، يعود حاملا قلّته، ولقّة زادِه، راكبا حماره، ووراءه مواشيه.

اعتاد أن يبدأ يومه الصيفي، بإفراغ ماء القلل الباقي من اليوم الفائت، في حوض شجرة البونسيانا بزهورها الحمراء المجاورة للمحل، وقد امتدت بعض أغصانها، لتظل العتبة. تحت الشجرة، هناك مقعدان، لمن رغب في الاستراحة أثناء قيظ النهار.

يشبه محمود أباه "جمعة"؛ صديق شعبان منذ أيام الشباب الأولى، سنوات عادت بها ذاكرة شعبان إلى مطلع شبابه، عندما كان مضطجعا ساعة العصرية على سريره ذي الملاء القطنية البيضاء؛ التي طرّزتها أمه بنفسها، بخيوط شكّلت زهورا، وأوراق شجر.

ساعتها، سمع صوتاً أسفل البيت ينادي عليه، خرج سريعاً إلى الشرفة الخشبية، مرحباً بصديقه جمعة. نزل درجات السلم، ليستقبله عند باب المنزل الخشبي، واقتاده للصعود، إلى غرفة الجلوس، بكنباتها البلدية الموزعة على جدران الغرفة، تتوسطها طاولة خشبية عليها مفرش عُنّابي، مزدانة حوافه بزخارف هندسية، وعليه مزهريّة.

نادى شعبان على والدته لإعداد الشاي، وبعد سلامات مكررة بين الشابين، قال جمعة:

-قدّمتُ لأتوظف في وزارة الكهرباء.

ثم تطلع إلى شعبان، وأردف:

-ما رأيك أن تقدّم معي، وتتعين فيها؟

-وماذا سأشتغل عندهم؟

-موظفاً، أنت معك الإعدادية، أما أنا فالابتدائية.

-ولماذا أرهن نفسي في الوظيفة؟ أنا مَلِكُ الآن في دكاني.

-الوظيفة أمان، ومرتب ثابت.

-سمعتُ شيخاً يقول: الوظيفة أضيق أبواب الرزق.

نادت الأم على ابنها، فأسرع وحمل صينية الشاي، وعليها طبق به حبات نبق. كلاهما ارتشفا الشاي، متلذذين بطعمه، ثم تسارعت أصابعهما لتلقف حبات النبق المقطوفة من شجرة سامقة أمام البيت. اختفت الحبات اللذيذة، بعدما تسابقت أصابعهما عليها.



هتف جمعة:

-أنت عندك صنعة الحلاقة، أما أنا فلم أثبت في حرفة.

بالفعل، ترك جمعة المدرسة الابتدائية، واشتغل في "مِقْلَة تسالي ولب"، ثم تركها إلى "مَعْلَق تجارة خشب"، تعارك مع صاحبه، فاشتغل بائعا في سوق الخضار.

في الزيارة التالية، كان جمعة متجهم الوجه، فقد عيّنوه "منفذ خدمة" في المصلحة، قائلين له إن تعليمك ابتدائي، وتلك هي الوظيفة المتاحة. اضطر للقبول، ثم قرر الزواج من "سيّدة"، ابنة عم أمه، بعدما أكّدت أمه أنها بنت غلبانة، ترضى بالقليل.

بحث له شعبان عن شقة إيجارها بسيط، فلم يجد إلا شقة من غرفتين، بينهما طرقة مع حمام صغير، ومطبخ ضيق، عاش فيها الزوجان راضيين، ثم تتابع أولادهما، وبناتهما.

بانت ابتسامة محمود في المرأة، لمحها شعبان؛ ابتسامة هائلة راضية أعلاها جفنان مطبقان، في وجه أضناه شقاء سنوات أكثر من ثلاثة عقود. نفس ابتسامة أبيه جمعة (رحمه الله)، عندما يكون رائق المزاج، وهو يحكي عن عمله في المصلحة، وكيف اتخذ ركنا مع زميله؛ نصب فيه موقد "الغاز"، لعمل طلبات الموظفين؛ الشاي، والقهوة، والحلبة، ويقصده أيضا المراجعون للمصلحة، ليخلص أوراقهم، فيتنقل بين مكاتب الموظفين، وما إن ينتهي الزبون من شرب الشاي، حتى يجد معاملته الورقية منتهية، فيضع في كف "جمعة" ما قُسم، فيدسُّه الأخير في جيبه، غير متفحص، فـ

"كلُّه رزق العيال"، ويكفيه العودة بكيس فاكهة، أو نصف كيلو لحم، أو يعطي زوجته "سيدة" وريقات مالية؛ تدسها في "بوكها" الصغير، عازمة على الخروج إلى السوق صباح اليوم التالي، لتملأ الشنطة البلاستيكية بالخضار، ثم تطبخ حلَّة كبيرة، ستكفي عيالها في الغداء والعشاء.

في غرفة أولاد جمعة؛ ستة أسرة، كل سريرين فوق بعضهما في ركن، سريران للولدين محمود وحسن، وأربعة للبنات دلال، وعبير، ومنال، وهناء، أما الغرفة الثانية فهي لجمعة وسيدة، فيها دوايب الملابس، وأسفل السرير الخشبي الكبير الحِجل والصواني، التي لا مكان لها في مطبخية المطبخ. علّمت "سيدة" ابنتها الكبرى دلال الطبخ، وأيضا العناية بشقيقاتها الصغيرات، أما محمود، فيساعد أباه في المصلحة في عطلة الصيف، منذ أن كان في الصف الثالث الابتدائي، يحمل صينية الطلبات، يلفُّ بها على المكاتب، ثم يعود لأبيه بالحساب والبقشيش، يضحك جمعة، مداعبا شعر ابنه، متمتا أن "البقشيش له".

عندما يرجعان -جمعة ومحمود- إلى البيت، يظل محمود يتكلم بحماس، حاكيا أحداث اليوم في المصلحة؛ الموظفين والزبائن، واختلاف سحناتهم، وأمزجتهم، يصمت الأب، تنصت له الأم والبنات، أما الابن حسن، فهو يتغدَّى متعجلا، ليسارع إلى لعب "كرة الشراب" مع عيال الحارة، يستمهله "محمود"، ويعطيه ربع البقشيش، أما النصف فيذهب لأخواته، ليشتري "عزَل البنات"، أو مصاصات "الكاراميل"، ويُبقي محمود رُبعا له.



انتبه "محمود" من إغفائه ته على كرسي الحلاقة؛ أخذته سِنَّهُ من النوم، جعلته منتبها بعدما استيقظ. رمق يد شعبان الممسكة بشفرة حادة، تجوس بمهارة على ذقنه الممتلئ برغاوي الصابون. أضيئ وجه الشاب، فقد أزيلت بقايا شعر لحيته غير المهذبة، وهُدِّبَ شاربه وحواجه، فقَصَّ ما شدَّ من شعراتهما، ثم لمعت قسماتُه وخداه.

يتذكر يوم مجيء "جمعة" إليه في الدكان، مصرا على محادثته على انفراد خارج المحل، وقد سُمِعَ آذان العشاء، فردد شعبان التكبير، والشهادة، وهو يستأذن من الزبون الذي احتلَّ كرسي الحلاقة؛ ليحدث صديقه القديم في أمر طارئ. طأطأ الزبون رأسه لأسفل، وآثر إسبال جفنيه، بدلا من البحلقة في المرأة.

بخطوتين، استقرت قدما شعبان على العتبة، لا تزال النسيمات الصيفية المسائية تحمل بقايا قيظ النهار، مما دفع أصحاب المحلات في شارع الرملة إلى الجلوس أمام محلاتهم، يتنسمون هواء مشبعا برطوبة نابغة من مياه بحر يوسف المتهداية.

تمشَّى الاثنان، وكان السؤال:

-خيرا يا "جمعة"؟

الهمَّ جاثم على وجه جمعة، حبَّات العرق جافة على خديه ورقبته، وامتدت إلى شعره الأكرت، فوقف متصلبا، وكأن الشمس صوبت أشعتها الحارة على رأسه طوال النهار.

-ابني محمود، نجح في الشهادة الإعدادية بمجموع كبير، و....

- ونعم الذرية.

-يريد الالتحاق بالثانوي العام.

-ولد جاد، وله مستقبل.

أحنى جمعة رأسه، ثم رفعها، مصوبًا عينين دامعتين إلى صديقه، مسهبًا قوله إن محمود هو سنده، وسند أشقائه في الدنيا، ويريده أن يدخل الثانوية الحربية الصناعية، فالوظيفة بعد الدبلوم مضمونة في المصانع الحربية، وسيعفى من الخدمة العسكرية، وبهذا يساعد أباه في المصاريف، وختم حديثه بأن العيال كثروا، وطلباتهم لا تنتهي.

تفرّس شعبان في وجه صديق عمره؛ هذه الشقاء، وطحنه الكد اليومي في مصلحة الكهرباء، فكأن عمره تضاعف بالتجاعيد التي غزت وجهه، والشيب الذي طغى على شعره، وظهره المنحني تعبًا، وهو الذي ينتظر يوم الجمعة ليلوذ بالنوم، حتى توقظه "سيدة" ليصلي الجمعة، بصحبة ابنه، ثم يعود لاضطجاعه الطويل.

ختم جمعة فضفضته:

- كلم "محمود" أنت يا شعبان..، أستحي كسر خاطره، وهو الذي يحلم بالجامعة.

احتضنه شعبان مغالبا دمعاته، ما أقسى انكسار الأب أمام ابنه!

نزهة ماتعة قام بها الفتى "محمود" مع أصحابه في ميدان السواقي، تعشوا سندويشات الكفتة، شربوا عصير المانجو، احتفالًا بنجاحهم في الإعدادية، واتفقوا على الذهاب للسينما في اليوم التالي. تذكّر - في عودته-



طلبَ أمه بالمرور على عم شعبان. العاشرة ليلا، واقفا كان على عتبة
المحل، ناظرا إلى القلل، وما تنضح به من ماء.

هشّ وبشّ شعبان في استقباله مهنتا له بالنجاح، ونادى على صبي
البقال المجاور لإحضار زجاجة مياه غازية مثلجة.

وكانه كان ينتظره خصيصا، هكذا شعر "محمود"، فالدكان خال،
والساعة متأخرة، وشعبان بمفرده، ممسكا بمجلد عتيق، يقرأ بصوت عال،
ويردد الأشعار.

زجاجة المياه الغازية بطعم اليوسفي، شربها محمود متلذذا، منصتا
لصديق والده الحميم، الذي حدّثه عن قصة قرأها في الكتاب الذي بين
يديه، وتلك عادته عندما ينهي عمله. حكى بتؤدة:

- كان هناك فلاح كبير في السن، يمتلك أراضي زراعية واسعة، ولديه
ثلاثة أولاد. جمعهم يوما، وأخبرهم برؤيته نسرا ضخما، حمل بين منقاريه
كيسا، طار به فوق أرضه غير المزروعة المجاورة في الجبل. سقط الكيس،
وتناثرت منه قطع ذهبية؛ اختفت تحت التراب.

تساءل الأولاد: وماذا تريد أن نفعل يا أبانا؟

أجاب الأب: ابحثوا عن الكنز، ومن يعثر عليه فهو له. فاستفسر
الأولاد: كيف نعثر عليه، وقد اختفى؟ ردّ أبوهم: افلحوا الأرض واحرثوها،
فرمّا تجدون الكنز.

ضحك الأولاد جميعهم، وهتف أصغرهم: وإن لم نجده، يضيع تعبنا.
فقال الأب: افلحوا واحرثوا، وازرعوا فيها البطاطس. استغرب أكبرهم:
ولماذا البطاطس يا أبانا؟ أجابه: لأنها تنمو تحت الأرض، فلو حصدتموها،

وهي ثمار قد تجدون الذهب متعلقا بها، وبذلك تربحون المحصول والمعدن الأصفر.

تبادل الإخوة النظرات، وقال أوسطهم ضاحكا: دعونا مرتاحين، راضين بحياتنا، وبإيجار بقية الأرض. هتف الوالد: الإيجار قليل، ووعدني أن تكون الأرض ملكا لمن يعمل فيها. انصرف الأوسط والأصغر، أما كبيرهم، فقد أمسك بكف أبيه، وقال: سأبحث أنا على الكنز، سأحرث الأرض وأفلحها. عمل الولد بكد، فإذا تعب؛ واشتكى لأبيه أنه وحيد، وأن الأرض كبيرة، يضحك الأب، مؤكدا أن الصبر مفتاح الفرج. حرث الولد الأرض، فلم يجد ذهباً، فقال في نفسه ربما يكون أعمق مما حفرتُ وحرثتُ. ثم بذرَ وصبر، حتى نبت الزرع، واخضر. وفي يوم الحصاد، كان الأب يحاسب التجار، وهم يشحنون على الإبل أجولة البطاطس. شاهد الإخوة قافلة طويلة، فصرخوا غير مصدقين.

قال الابن متعجبا: لم أجد الذهب، عندما حرثتُ أو بذرْتُ، أو حصدتُ. ضحك الأب، وناول ابنه صرة كبيرة بها ثمن المحصول. وقال: هذا هو الكنز، والأرض ملك لك.

منصتا كان محمود، الوجوم يحبس الكلمات على لسانه، لم تفارق عيناه المرأة العتيقة، غير ناظر إلى وجه محدثه، الذي فاض حنانا، وهو يخبره برغبة الأب.

حتما انتهى الكلام، وحتما كان صمت الفتى، الذي وقف، ثم غادر.



دمعتان تترققتا من شعبان، وهو يُنزل الباب الحديدي الصفيح
لمحلّه، يمشي الهوينى في شارع الرملة، المحلات أغلقت أبوابها، الكراتين
الفارغة متناثرة، تنتظر عمّالا فقراء، ينشطون بعد هدوء حركة السيارات،
وقلة أقدام السائرين، فيتنافسون لكبس الكراتين، وربطها بحبال متينة،
ثم يحملونها على ظهورهم، أو يكومونها على عربات كارو؛ يدفعونها
متسللين إلى الحارات الجانبية.

-مات والدي!

ثم صرف محمود وجهه بعيدا، ليخفي بكاءه.

كان شعبان عائدا من صلاة الفجر في مسجد قايتباي، بعدما أشبع
رئتيه بالهواء النقي، فقد أثر الجلوس على المقعد الحجري الملاصق لباب
المسجد الخشبي ذي الزخارف الإسلامية، وأعلاها آيات قرآنية منقوشة
بخط الثلث.

رُتل الآيات المدونة بصوت خفيض، فهو يعرف قراءة خط الثلث منذ
انبهاره به في المدرسة الإعدادية. تعلّمه وأتقنه، وأجاد قبله خطي النسخ
والرقعة، وعشق أيضا خط الثلث الشعباني الذي ازدانت به جدران المسجد
العتيق، خاصة القبلة والمنبر. ترنم بالآيات التي تمتدح من يعمر المساجد،
وتذكّرهم بالجنّات. ظل يرتل في عودته هذا الصباح ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾،
قرأها مخطوطة على الجدار الداخلي لباب المسجد، ولهج لسانه بها، حتى
سمع طرقات محمود الخافطة على باب شقته، أنصت في خشوع، متأملا
قسمات الشاب الحزينة. ردّ سريعا:

-انتظر، سأتي معك.

-سأسبقك يا عمي.

مقاعد متراسة أمام بيت جمعة، بنوافذه الخشبية الطويلة، وسلامه الحجرية، وواجهته العتيقة. كبار السن من أهل الحارة جالسون، بينما أثر الشباب الوقوف، متأهبين لمساعدة محمود في الغُسل، وإجراءات الجنازة، الصمت يخيم على الألسنة والآذان.

تأمل شعبان وجه صديق عمره المسجى، جفناه مطبقان بسلام، أسفلهما تجاعيدٌ وجهٍ أنهكه الشقاء، فازداد تغضنه، مع لحية كتّ، ذراعا على صدره، بكفين معروفتين.

حوقل واسترجع، وهو ينسحب من الغرفة ذات الأثاث المكس: السرير العريض، والدولاب الكبير، وقد اعتلته حقائب قديمة وكراتين. سالت دمعاته، وهو ينظر إلى بنات صديقه الأربع اللاتي ارتدين السواد، أكبرهن في الثامنة عشر، وأصغرهن في الخامسة، وهذا محمود في الثانية والعشرين، أما أخوه حسن فلا يزال في المرحلة الإعدادية.

جالسةً كانت الأم "سيدة" على الكنبه في الطرقة، وبجوارها أميمة زوجة شعبان، تربت على كتفها، توصيها بتمتات سريعة بعظم ثواب من تصبر، "سيدة" ساهمة، شاردة، واجمة.

لم تعلُ صرخة، ولا نواح من نسوة الجيران أو الحارة، فقد عرفن أن النياحة على الميت منكر، وفق ما سمعنه من شيخ الجامع، وهو يعلن بعد الفجر خبر الوفاة.

بعد صلاة الظهر، تراصت الصفوف لصلاة الجنازة، ثم تهادى النعش نحو المقبرة، سجّاه شعبان ناحية القبلة، قبّل رأسه مرات، ملامح وجهه فاضت طمأنينة وسكينة.



"الموت حق، والحياة حق"، هكذا قال شعبان لمحمود، بعد انتهاء اليوم الثالث للجزاء. فَهَمَّ الشاب الرسالة، تطلع إلى المقاعد الخاوية من المعزين، والقرآن يُتلى.

- سيكون لدينا معاش أبي، مع راتبي في المصنع، وعملي في ورش الميكانيكية.

تتالت السنون، توجب على الأسرة الانتقال إلى شقة أكبر، بدلا من الغرفتين ومنافعهما. كانت الشقة المستأجرة في حي "الحادقة"، وعندما زارهم شعبان مع زوجته، وجد أثاثا جديدا، وغرفتين للبنات وأمهن، وثلاثة لمحمود وحسن. ابتسم محمود، وهو يجلس على كرسٍ وثير في الصالون، ذاكرا أن العرسان بدأوا في التقدم لأخواته، وكلهن جامعيات، فلا بد من استقبالهم في شقة لائقة، ثم أكمل موضعا أن راتبه في المصنع معقول، وقد قرر فتح ورشة ميكانيك بدلا من العمل بالأجرة، و"الحمد لله، تجهيز البنات؛ يوسّع الرزق".

أعراس ثلاثة للبنات حضرها شعبان، وفي كل مرة، معه أميمة وابنتاه حسناء وحنان، يرتدين فساتين جديدة بألوان زاهية، يضحكن العروس وشقيقاتها.

كانت مفاجأة، وعلى غير عادته، عندما وفد عليه محمود في دكان الحلاقة.

-خيرا يا بني!

-سنعود إلى شقتنا القديمة في الحارة.

-.....؟

استفهام مصحوب بالدهشة على وجه شعبان، وهو يسارع بإحضار قلة باردة، صبّ منها ماء ينضح بالنعناع، عبّ منه محمود أكواباً، حتى ارتوى، ونضحت جبهته بعرق ساخن؛ نشّفه بمحارم ورقية، بعدما زفر طويلاً، وهو يقتعد كرسيًا بالمحل.

-ما رأيك في قهوة بالحبهان؟

فاحت رائحة البن من السبرتاية، حمل شعبان فنجانين، مزدانين بوجهين كثيفين.

ارتشف محمود مستمتعا، وكان عليه أن يحكي:

-المشكلة في أخي حسن.

نظرات شعبان صامتة، يقطعها صوت الرشقات المتتابعة.

-أنهى كلية الهندسة، وتعيّن في شركة مقاولات، ثم فاجأنا، بقرار خطبته لزميلته التي أحبها في الجامعة.

-وماذا بعد؟

-أمي صرخت فيه لتأجيل قراره، فلا تزال لدينا أخت مخطوبة، مشغولون بجهازها، ثم طلبت منه الانتظار حتى أتزوج أنا، فأنا الأخ الأكبر، وقد قاربت الأربعين.

-كلام معقول.



-حسن صمم على رأيه، وأخبرنا أنه تقدّم للفتاة بالفعل. أقنعتُ أنا
أمي لتبارك الخطوبة، وتزور نساءنا، وساعدته بما ادّخرته أنا لشراء الأثاث
والأجهزة الكهربائية.

-فاجأتني ..، كلما كنت أسألك عن أحوالكم؛ تحمد الله، وتسكت.
أردف محمود:

- طلب حسن السكن معنا في الشقة، فهي واسعة، فلا قدرة لديه على
التأجير، ووعدنا أن هذا مؤقت لحين تسلمه شقة حجزها ضمن عمارات
إسكان الشباب.

-ولماذا لا ينتظر حتى يتسلمها؟

-هذا ما قالته أمي، ولكنه قال: أمامي سنتان على الأقل، وأهل العروس
يستعجلونه.

تنهّد شعبان، يعرف أن حسن -الشاب الوسيم الأنيق دوما- قد خاض
تجارب حب مع بنات الحارة، ودخل في عراكات، احتمى فيها بمحمود،
الذي دوما ما يردد أمام أمه وشقيقاته: "الظُّفر لا يخرج من اللحم".

ختم كلامه: اضطررنا أنا وأمي للعودة إلى شقتنا القديمة، نقلنا معظم
أثاثنا، حتى تهناً عروس حسن، أما أختي الرابعة فزواجها بعد أسابيع.

بأسى أنهى حديثه: حسن لا يحضر غداءنا يوم الجمعة، أخذته
العروس منا.

أنهى شعبان حلافته لمحمود، ودهن وجهه بعطر فوّاح برائحة الليمون، صفف شعره من جديد، واقترح أن يصبغ خصلاته البيضاء، فضحك محمود، وهتف:

- سأصبغها، عندما أخطب بنت الحلال.

- أخبار حسن؟

تساءل شعبان وهو يزيل الفوطة عن صدر محمود، الذي هتف في حبور:

- من يومين، فوجئت به واقفا أمام ورشتي، يخبرني أنه أنجب ولدا، وسماه على اسمي.

- ما شاء الله!

- وأخبرني أننا جميعا مدعوون إلى "سبوع" المولود، الجمعة القادمة، وقال أيضا إنه سيتسلم شقة المساكن بعد ستة أشهر.

بهدهوء ورضا ختم محمود كلامه:

- الكنز في النفس، وليس في الأرض.







انهمكت الممرضة في تلميع اللوحة المعدنية المعلقة على باب العيادة، وعليها اسم الطبيب وتخصصه؛ حانت منها التفاتة إلى الأقدام الصاعدة على السلم، كان شعبان حاملا حفيده "يوسف"؛ تهللت أساريرها مرحبةً به، وهي ترنو إلى شعره الأشيب المصفف إلى الخلف، وشاربه الرمادي الخفيف، ووجهه الناضح بالطيبة وحنكة الحياة.

أشارتُ إليه ليتفضل في الشرفة المطلة على واجهة العيادة البحرية، حيث مشهد يضج بالحركة والجلبة والحياة كلها. ابتسم شعبان، واتخذ مقعده مداعبا كفيّ حفيده، ثم تناول شاكرا علبة عصير باردة، ومعها قنينة ماء؛ تلك هي تعليمات الطبيب الجراح "طارق" للممرضة، بأن يُعامل عم شعبان معاملة خاصة، متى حضر.

كان ذلك يوم الاثنين، الراحة الأسبوعية لشعبان، ابتناه تأتبان بأولادهما، لبدأ الصخب العائلي، بين الجد الذي يبتكر ألعابا لأحفاده، قفزا على ظهره، وركوبا على كتفيه، ثم يتحلقون حوله مُنصتين لحواديته عن سيف بن ذي يزن، وأبي زيد الهلالي.

تتصلب عيونهم وتلمع، ويتقدون حماسة؛ وهم يسمعون الأحداث والمغامرات، ناظرين إلى الجد الذي يلون صوته معبرا عن كل شخصية، فشفته تتشكلان، وهما تصدران نبرات مصحوبة بقسمات وجهه المتغيرة، كأنه لاعب الأراجوز، محركا عرائسه؛ مرة يتكلم بصوت أجش، مصحوبا بالسعال مقلدا صوت العجوز، أو ينطق بقوة وعزيمة كأنه شاب، فإذا حكى عن امرأة، أثر أن يروي عنها، ويذكر ما قالت، دون تقليد.

تطلع شعبان إلى أصغر أحفاده "يوسف"، في فخذة "دُمَل" متورم مع احمرار، وإن لم يشتك الصغير منه، تطلع إلى أمه، مخبرا إياها باصطحابه إلى الطبيب بعد المغرب.

في مواعده، كان الدكتور طارق يخطو إلى العيادة، فأشارت الممرضة إلى الشرفة، وسرعان ما كان عناق حار بين الطبيب والجد، حاملا حفيده الشقي ذا العام والنصف إلى غرفة الكشف، داعب طارق شعر يوسف الغزير، وهو يقول:

-الولد يشبهك يا عم شعبان.

ابتسامة عذبة أضاءت الوجه الحاني؛ وشعبان يؤكد أن ابنته الكبرى "حسنا"، أخذت تقاطيعه، وأشقاؤه ينعنونها بأنها "نسخة مؤنثة من أبيها"، ثم أردف:

-ويوسف شبه أمه، والبطن قَلابة.

يتفحص طارق الدَّمَل المتضخم في رجل "يوسف"، مطمئنا الجَدَّ، ثم يناوله علب الدواء، متصنعا تقطيعه حادة، رافضا كتابة الـ "روشته" لصرفها من الصيدلية. يَطأطي شعبان رأسه خجلا، ويرسل السلام للدكتورة مُنى، زوجة الطبيب. وعند مغادرته، ألقى السلام على الزبائن الذين ملأوا الصالة، وجلسوا على السلام، أما الحفيد فقد اعتلى كتف الجد.

على عتبة المحل، وأسفل مظلته، كان واقفا يجفف عرقه بمنديل قماشي، متطلعا إلى حركة المارة والسيارات في الشارع، تحركت قدماه نحو القِلال المرصوفة على يمين الباب، ملأ كوبا، مستمتعا برائحة النعناع الفائحة من مياه القُلَّة، ارتشف كثيرا ثم تمتم حامدا، وتوجَّب عليه المكوث قليلا، لعل نسيمات باردة تنقذه من قيظ الظهرية.

تتبع عينا شعبان هذا الشاب بأناقته البسيطة، الذي يعبُّ أكوابا متتابعة، وأطال الوقوف في الظل، ساهما شاردا، ثمّة تقطيعية تَوَطر ملامحه، وهو ينظر إلى اللاشيء.



-تفضل يا بني، هنا أرطب.

انتبه الشاب على نبرات صوت حان، تطلع إلى وجهه باشٍ، بجهة علاها شعر أسود مع بياض ممتد إلى سوافه أعلى أذنيه. فتح شعبان الباب الزجاجي، داعيا إياه للدخول والجلوس، مكررا الترحيب.

على دكة خشبية مغطاة بالجلد، ومحشوة بالقطن وعفش الأرز، قعد الشاب صامتا، يراقب الحلاق ويديه الماهرتين في لمساتهما الأخيرة على شعر الزبون؛ زيت ينعمه، وعطر ينثره، ومشط تصففه، ثم يتمم "نعيمًا .. نعيمًا". يرد عليه الزبون بكلمات مبهمة، وهو يدسُّ أجرته في الجيب العلوي، ثم يلقي السلام، ويغلق بهدوء باب المحل خلفه.

-الكركديه يرؤق المزاج في الحرّ.

ابتسم الشاب، خفض عينيه حياءً، متتبعا شعبان وهو يشعل موقد السبرتو، ويضع الغلاية عليه، بعدما ملأها بالأوراق الحمراء، انسابت من المذياع موسيقى عذبة لرياض السنباطي، بصوت ليلى مراد، ترنم شعبان مع كلماتها مرددا:

" مين يشتري الورد مني، دي وردة بيضا صفو الوداد فيها،

ودي وردة صفرا الغيرة تضنيها، ودي وردة حمرا بالدمع أروبيها"

كوبان زجاجيان حويا الكركديه الساخن، استقرا على صينية، ووضعت على طقظوقة صغيرة، ثم ناول ضيفه الكوب والبخار يتلوى على سطحه.

-أخاف أن أكون قد عطّلتك!

-أبدا.. الناس تفضّل الحلاقة آخر النهار، هذه ساعة راحتتي.

بتردد وبصوت خفيض، قال الشاب:

-أبحث عن سَكن صغير، لو تساعدني.

- لمن؟

-لي أنا وزوجتي... (ثم أردف): لي يومان أبحث.

تمعّن شعبان في محيّا الشاب المتعب، وشعره الغزير الملتصق بجهته بفعل العرق. بنطاله أنيق وقميصه فاخر وإن تكسّرت حوافهما، هيئته دالة على كرم أصله.

-حاضر.. لا تقلق.

زفرة طويلة من الشاب، وهو يتطلع إلى اللوحات الموزعة بعناية على الجدران، حاملة آيات قرآنية بخطي الثلث والديواني، وكان عليه الابتسام وهو يعيد نظره إلى شعبان، الذي لا يزال يترنّم بأغنية الورد، ومن يشتره.

-اسمي طارق، طيب في الوحدة الصحية بقرية "أبجيح".

-تشرفت بك يا دكتور.

كان موعدهما ثابتا كل خميس، عند الرابعة عصرا، أسفل النخلات الملكية الثلاث، في حديقة كلية الطب. كالعادة ينتظرها طارق، معلقا على كتفه الأيمن حقيبته الحاوية كتبه ودفاتر محاضراته، وبها معطفه الأبيض وسَماعته. عائدا كان من مستشفى الكلية، ولا تزال حالات المرضى التي عاينها ماثلة في عينيه، وأناتهم حاضرة في أذنيه.



عليه الصبر، فرما تتأخر دقائق، قد تصل إلى ربع الساعة، ليس أمامه إلا النظر إلى جريد النخل بسعفه الأخضر المتدلي، أخبره أحد الفُراشين (العمال) أن النخلات مغروسة منذ إنشاء الكلية في منتصف القرن المنصرم، هي دائماً الخضرة، ثمارها جافة اللب، ولكن جُمارة قلبها لذيدة الطعم. دأب العامل على تشذيب جريدها وسعفها، فتبدو دائماً منسقة.

ضحك طارق طويلا، منصتا للعامل الطيب، وهو يخبره أنها يسميها صديقات عمره، وقد عقد العزم -إذا خرج للمعاش- أن يأتي لرعايتها.

هذه هي "منى"، تخطو نحوه بتؤدة، تنظر بنصف ابتسامة، مشيرة إلى ساعتها، فالיום لم تتأخر إلا سبع دقائق، والسبب لا تعرفه، لأنها تتذكر الموعد في صباح اليوم، وتنساه عند الظهر، عندما تنشغل مع زميلاتها في حكاياتهن.

يعاتبها، فلا ترد عليه، لأنها أخبرته مرات أن البنات إذا تحدثن فلا يعرفن توقفا، فكل واحدة لديها مخزون يومي، عليها إفراغه على مسامعهن.

يتمشيان نحو كافيتريا خارج الكلية، وقد خلت ساحاتها ومبانيها، فمحاضرات اليوم قليلة، وغدا الجمعة عطلة، وغالبية الطلاب والطالبات سيعودون سريعا إلى غرفهم في المدينة الجامعية، ليحملوا حقائبهم استعدادا للسفر إلى محافظاتهم القريبة من القاهرة.

وصلا الكافيتريا، سرعان ما أحضرَ وجبتهما المفضلة؛ قطع الدجاج المقلي، مع الخبز والسلطة والمشروب البارد. ارتكنا، وكعادتها، حكّت -بإيجاز كما تدّعي- عن نشاطها طيلة الأسبوع. وكلما أراد هو الحكى لا تعطيه فرصة، فجعبتها مليئة، وهي تعرف مقدما ماذا سيقول، لأنها

ببساطة- كما تؤكد- زميلان في دفعة واحدة، ومدرج واحد، يظلان طيلة الأسبوع، يتبادلان التحية بنظرات وابتسامات في صباحهما ومساءلتهما، فالعهد المتفق بينهما، أن تظل مشاعرهما مخبوءة، حتى لا يكونا ضحية للأعين والألسنة.

يعشق خفة دمها، وأحلامها العريضة في الدراسات العليا، والبراعة في التخصص، لذا، يأتي حديثها خليطاً من الواقع، والمستقبل، أما الماضي فقلما تتطرق إليه.

تصفه بأنه جاد أكثر من اللازم، ينشغل بما هو حاضر، بالمراجع الطبية والمذاكرة، لذا، ترى أن التخطيط لما هو قادم يقع على عاتقها، ووفق خيالاتها اللانهائية.

"نحن نكمل بعضنا"، هكذا يقول لها، وترد عليه بتكرار نفس المقولة.

الثابت في علاقتهما أنه لم يصارحها بحبه، لأنه لا يجيد الكلمات الرومانسية، وهي لم تطلبها، وإنما ثمة تناغم بينهما، نشأ منذ عام، وافقت على مفض أن يكون لقاؤهما الأسبوعي ضمن محيط الجامعة، في نهاية الأسبوع.

نظرت لساعتها، تخطت الخامسة، عليها العودة لغرفتها في المدينة الجامعية، لتأخذ حقيبتها المعدة من أمس، ثم إلى باب الحديد في ميدان رمسيس، لتلحق قطار "بنها".

تفحصها بنظراته، قبل أن تغادره، فستانها أنيق وطرحتها تَوَطَّر وجهها المسمم الخالي من المساحيق، رفضت منذ تعارفهما الأوَّلِي مصافحته، والتزم هو بذلك.



في طريقه إلى منزله في حي الوايلي، غرق في تفكيره، إنها في السنة النهائية، وأمامهما سنة التكليف، كيف يفتح والده عميد الشرطة المتقاعد؟ يتوجس من هذه اللحظة، فحتمًا سيكشّر أبوه، وهو يستمع لابنه الأوسط عن رغبته في الارتباط، ساخرًا من حب الجامعة، فدوماً يشبهه بعلاقة ولد و بنت يركبان المترو كل يوم، يتبادلان النظرات وأحياناً الكلمات، يتوهمان أنهما يعيشان حباً، ثم ينتهي كل شيء عندما تختلف مواعيد ركوبهما، أو تتباعد بهما المحطات. هكذا قال أبوه لأخيه الأكبر "أسامة"، الذي تخرج في كلية التجارة، ومرّ بتجربة كان ولهذاً فيها إلى حد الثمالة، ثم أفاق على تقريع أبيه وعقلانيته.

يعتز والده ويفتخر بلقب عائلته "الحسني" العريقة، بجذورها العائدة إلى المغرب، وقد آثر الجد الأكبر العيش في القاهرة بعد عودته من رحلة الحج. كان ساعتها شاباً، عشق عمارة القاهرة المملوكية، وتحديدًا أيام السلطان قلاوون.

هكذا، ذكر الجد ودوّن في مخطوطة تتوارثها الأسرة منذ قرون، وتحرص على ترميمها، وفي كل بيت نسخة مصورة منها، وإن كانت طباعتها ونشرها قراراً مؤجلاً من مجلس العائلة.

تطلع الأب إلى ابنه الشارد، وكأنه قرأ خاطره، كانا على منضدة العشاء، الأم والأخت الصغرى بجوارهما، تساءل الأب وشجّع نجله:

-ماذا يشغلك يا طيبب الغد؟

استجمع طارق شجاعته، ويبدو أنها لحظة قدرية، لا مفر منها، قال ببطء:

-أنا في السنة النهائية..، أمامي سنة التكليف، وأفكر في الارتباط بزميلتي في الدفعة.

بحلقت الأم والأخت، تعلمان جدية طارق واستقامته، أكمل الأب:
-وأمامك أيضا سنة في الجيش، وربما تكون ثلاث سنوات إذا ترشحت
ضابطا احتياطيا.

-فقط أخطبها، إنسانة راقية فاضلة.

بحنكة السنين، قال الأب بحزم:

-مشوارك طويل، فكّر..

سكت، وإن شعر بأن هماً انزاح بمصارحته المبكرة، فذلك خير من
كتمها في نفسه.

وفق وصفها للعنوان، وصل إلى بيتها في حي شعبي بـ "بنها"، السلام
حجرية، طرق الباب، فتحت "الشرّاعة" أمها، متلفعة بثوب الصلاة، أحنّت
رأسها مرخّبة، وسرعان ما كان أبوها يستقبله في غرفة صالون بسيطة،
تتوسطها منضدة رخامية.

بنفس مفعمة بالأمل، وبحماسة، تحدث عن عائلته، ومستقبله، وأنه
سيكتفي بخطوبة فقط، لحين إنهائه التكليف، أنصت الأب باسم، ثم
قال: -أحضر والديك إذن.

شرب العصير، الذي قدّمه أخوها الصغير، ودّعه الأب ببشاشة، مع
أمارات الجدد.

في اليوم التالي، أخبرها عن شدة والده وموقفه، وأعلمته هي عن
ظروف أسرتها، أبوها سائق في هيئة النقل العام صباحا، ويعمل على
تاكسي يؤجره مساء. تحدثت عن إخوتها الأربعة، وأنها أول طيبة في



العائلة. نظراتها خجلى، وهي تؤكّد تمسكها بطلب والدها وموقفه، دموع في مآقيها، أولته ظهرها، أيقن أنها لن تأتي للقائه ثانية.

عندما عاد للبيت، كان والده في جلسته المعتادة في الشرفة الواسعة، يقلب صفحات الجريدة. داعب شاربه الكثّ مستمعا لابنه، وهو يصف أسرتها البسيطة، وأباها وأمها الطيبين. هزّ رأسه نفيا، وأسهب متفاخرا بشخصيات العائلة ذوي المناصب في وزارات الداخلية والجيش والخارجية، مؤكداً أن أهلها شرفاء دون شك، ولكن الزواج تكافؤ في النسب.

قابلها في ردهات وزارة الصحة، كان ممسكا بورقة تكليفه بقرية في "الفيوم"، تبادلنا النظرات، استرجعا شهورا مرّت على آخر لقاء. وجهها صبور هادئ، واصلت طريقها.

في مديرية الصحة بالفيوم، قابلها ثانية، ردّت سلامه، كانت تستعلم من الموظف عن مكان تكليفها، فبشّرها بأن الطبييات داخل مستشفيات المدينة، أما الذكور فهم في القرى.

-كأن القدر جمعنا.

هكذا، همس لها بعدما استوقفها، قبل ركوبها سيارة أجرة. أجابته بحزم:

-لنكن زملاء فقط.

جلست في المقعد الخلفي، طلبت من السائق توصيلها إلى المستشفى العام، وجواره سكن الطبييات المغتربات، أمارات الحزن تغلّف قسماها.

بوجه بشوش سَمِح، استقبله والدها ثانية ومعه أمها، استمعا عن عزمه على الزواج، موضحا أن العقبة في والده، ومعه مبلغ قليل، كما أن أخاه وأمه يباركان الزيجة، والحمد لله أن تكليفهما في محافظة واحدة، فلا بأس أن يتزوجا، ويقيما في شقة صغيرة.

تمّعر وجه الأم، ارتفع صوت الأب مناديا على ابنته، فحضرت بوجه يتلأأ احمرارا.

-أهدتني أمي ثلاث "غوايش" من ذهبها شبكة للعروسة، وكتبنا العقد عند المأذون بحضور أخي، وعندما عدنا لبيتهم، زغردت أمها وأختها، ومعهما بنات الجيران.

سأله شعبان، وهو يناوله كوبا من الماء ملأه من قلّة ينضح ماؤها برودة:

-ووالدك؟

-قاطعني... زوجتي الآن في سكن الطبيبات.

-لا تحمل همّ الشقة.

من دولاب صغير، في ركن قصي بالمحل، أخرج شعبان علبة بلاستيكية، حرك غطاءها، وهو يقدّمها إلى طارق، قائلاً:

- تمر فريحي، جاف يقرمش، ولذيذ يمتع.

تمتم طارق شاكرا، ونظر إلى ساعته، مستأذنا في الانصراف، ضحك شعبان، وأمسك بذراعه:

- سنتغدّى معا.



غرفة وصالة، كانت شقتهما في منزل قديم، في وسط الشارع الذي يسكن فيه شعبان، اصطحب زوجته والبنتين، ومعهن علبه كبيرة مملوءة كعكا وبسكويتا، أعدتها أميمة.

ارتقوا السلام إلى الطابق الأخير، دَقَّات خافتة، فُتِحَ البابُ، طارق في استقبالهم، يرتدي قميصا وبنطالا، ومن خلفه زوجته مُنى بفرستان زاهٍ. الأثاث بسيط مستعمل، اشتراه شعبان من محل الحاج رياض؛ أنترية بمقاعد أربعة ملأ الصالة، وغرفة نوم دون ستائر، وفي المطبخ "بوتاجاز" صغير، فوّه أطباق وحلّل مرصوصة في مطبخية خشبية.

زغردت أميمة، ومعها ابنتاها، وهن يقبلن العروس، ويشعلن البخور، وينثرن أوراق الورد والياسمين، تجاوبت نسوة الجيران؛ فعلّت زغاريدهن وتتابعن، وسرعان ما صعد الأولاد والبنات وملأوا السلام، ليجدوا قطع الحلوى والشوكولاتة تُلقَى عليهم.

ارتفعت أغنية الأفراح من مسجّل في الشقة المقابلة:

"شوفت العريس.. أمال، راجل سيد الرجال

شفت الليلة.. جميلة،

شفت العيلة.. أصيلة،

شفت العروسة والعريس زي القمر.. الله الله"

في الأيام التالية، تتابعن زيارات أهل الحارة للعريسين الطيبين، حاملين الفطائر والعشاء.

- أبحث عن غرفة صغيرة لها طُرفة.

تشكّل وجه شعبان بعلامة تعجب وأمارة استفهام، وهو ينظر إلى طارق، وله شهور قليلة في الحارة، وتندر رؤيته، بحكم عمله في مستوصف ريفي، أما الدكتوروة منى، فإن أهل الحارة يبادرونها بالسلام في غدوها ورواحها اليومي، وهي ترد دوما ضاحكة مرحّبة، والكل يتطوع ليشترى ما تريده من سوق الخضار أو البقالة.

كرر طارق مقولته، فانتبه شعبان متسائلا:

-لماذا يا بني؟

-قررنا فتح عيادة صغيرة.

-العيادة تحتاج مالا.

قعد طارق في مكانه المفضل على الدكة الجلدية، وحانت التفاتة منه إلى كّف شعبان، ثمة التهابات عند إصبع الخنصر والإبهام، تفحصها بدقة، وقال:

-تحتاج لعلاج سريع، قبل تمددها لبقية اليد.

-ما هي؟

-عندك "التهاب الجلد التماسي"، بسبب استخدامك الكيماويات في العطور، والمرشّات.

تمعّن شعبان في كفه الأيمن، ثم الأيسر، بالفعل يعاني من حكة متقطعة فيهما.

-والعلاج؟



-يوجد أكثر من مرهم، مع مرطبات الجلد، سأحضرها لك.
أشعل شعبان موقد السبرتو، دقائق، واستقرّ فنجانا قهوة في كليهما.
هتف طارق:

-اقتراح العيادة من مُنى، وعندما سألتها عن التكلفة والتجهيزات،
قدّمت لي "الغوايش" الثلاث التي أهدتها لها أمي، وكنت قد نسيتها، أو
هي أخفتها عني.

-تقصد شبكتها؟

-نعم، وقالت نبدأ بها، نخدم بها البسطاء والطيبين.

ضحك شعبان عاليا، وحكى:

-ذكّرتني بالسيرة الهلالية، وعقد الجدة "شّماء".

تعجب طارق، واستفهم بعينين واسعتين، وملامح مشتاقة:

-ما الحكاية؟

-كان بنو هلال يعيشون في هضاب نجد، ولأن القحط أصاب أرضهم،
قرروا الهجرة لشمال أفريقيا، وأرسلوا بطلمهم "أبا زيد الهلالي" ومعه ابنا
أخته يونس ومرعي، وارتحلوا مع أفراد من القبيلة إلى مصر، ومنها إلى
تونس الخضراء، ليعيشوا تغريبة بني هلال مدة سبع سنوات، فيها ما فيها
من حب، وبطولة، ومأسٍ. (سكت ثم أكمل)

- يونس كان شابا وسيما، أعطته جدّته "شّماء" عقدا غاليا، ليهديه
إلى محبوبته إن عشق. أخفى يونس حقيقة العقد عن رفاقه، وعندما
وصلوا لتونس، شعروا بالجوع، وقد نفذ المال بعد رحلتهم الطويلة مدة
خمسین يوما، فأخرج يونس العقد، وذهب به إلى السوق، وعرضه على

التجار، ومنهم الدلال، الذي أخذ العقد إلى سعدة ابنة الزناتي خليفة وهو عدوهم، فثمّنته بثمار ثمانين حديقة من الفاكهة. حينها رفض يونس وصاح في وجه الدلال عقد جدتي "الأميرة شمة" يباع برّمان وزبيب، فقال الدلال: إذن، عقدك لن يُكرمه ويعرف قيمته إلا عزيزة بنت السلطان".

اصطحبهم الدلال إلى قصر الأميرة عزيزة، التي عشقت يونس لما رأته. وصل الخبر للزناتي خليفة، فحبس رجال الهلالية في سجن تونس وطلب منهم فدية، ولكن عزيزة توسّطت، ليُطلق سراح الخال أبي زيد، كي يسافر لإحضار المال، رحل الخال للقبيلة، وعاد بجيش كبير من الهلالية، انتصر على الزناتي، وتزوج يونس من عزيزة.

-هل ستنتقلون إلى القاهرة يا دكتور؟

-تساءل شعبان ذات مرة، وهو يُقص شعر طارق الغزير، كانت أعوام ستة قد مرت.

تطلع طارق إلى شعبان، وهتف:

-أنتم أهلي وناسي، نحبكم، تربّت ابنتنا ياسمين بين أهل الحارة.

-يكفي أنك تعالجهم بلا أجر في عيادتك.

ضحك طارق، وهتف مغيّراً الموضوع:

-مُنى مصممة أن نأخذ زمالة كلية الجراحين بلندن.

-أنتما أخذتما الملاجستير، كما أخبرتني، وكلامها عين العقل.

-المجنونة، لا تكف عن الحلم.



يوما، أوقف سيارته أمام المحل، عكست أشعة الشمس لمعانها، ترَجَّل نحو شعبان، الذي وقف على العتبة مندهشا، ليجد بطاقة فاخرة مستقرة في كفه، وطارق يهتف به، وهو يعود لمكانه خلف المقود:

-ننتظرك مع الأسرة يا عم شعبان.

-أين؟ ومتى؟ ولماذا؟

-بعد غد، في قاعة الأفراح بنادي الشرطة.

-خيروا! لم أفهم.

قبل انطلاق سيارته، هتف:

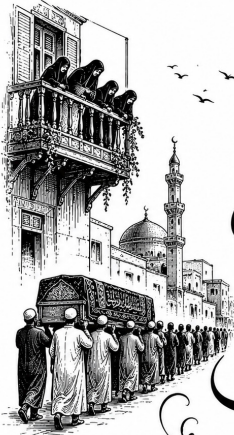
-سأكون مجنونا مرة واحدة، "مُنَى" لم تلبس فستان الزفاف مثل كل البنات.

تحوَّلت الموسيقى من الخفوت إلى الصخب، معلنة دخول العروسين، طارق ببذلة لامعة الخيوط، ومُنَى بفستان أبيض ساتان، بقفازين من الدانتيل، وبينهما ابنتهما "ياسمين"، بفستان وردي منفوش، تضحك بين والديها العروسين.

ممسكا بذراع شعبان، طاف طارق القاعة؛ مرحِّبين بالمدعوين، كانوا أهل الحارة، وزملاءهم الأطباء، وعند طاولة، قدَّم طارق الحاج حسين والد منى، وأمها الحاجة فوزية، وأبناءهما، وفي الطاولة المجاورة كان والده العميد قاسم الحسني، وأمه مدام رثيفة، وأخته نوال، وأخوه مُحَب.

علت الدفوف، وردد الحضور:
دَقُّوا المزاهر يلا يا أهل البيت تعالوا
جمّع ووقّق والله وصدقوا الي قالوا
عين الحسود فيها عود يا حلاوة
عريس قمر .. وعروسته نقاوة





الْحَلْوَةُ وَالْمُرَّةُ





إنه الصباح، الشمس تملأ سماء صافية، علا صوت الشيخ "إبراهيم" إمام المسجد، مرددا التكبير ثلاثا، ثم أعلن وفاة الحاجة "رجاء"، وأن الجنازة ستقام بعد صلاة الظهر. وكرر نداءه.

انسابت دموع "أميمة"، مترحمة عليها. من الشرفة، تطلع شعبان إلى المتجمعين أمام بيت المتوفاة، محوقلا، مستغفرا، سائلا الله المغفرة والفردوس الأعلى، ارتدى جلبابه، متمتما:
- سأكون معهم اليوم، وأغلق المحل.

اصطف أهل الحارة، ملأوا المسجد للصلاة، رددوا التكبيرات الأربع، ثم حمل أولادها الثلاثة النعش. تبعهم والدهم الحاج "قرني"، متكئا على عصاه، يسير بتؤدة، مع حفيده.

النسوة في الشرفات متشحات بالسواد، اشتد بكاؤهن، وهن يودعن جارتهن في مشهدها الأخير، تبعتها ابنتها "أحلام ووفاء"، سارتا خلف الرجال، مع بعض قريباتهما.

رفض ابنها الأكبر أن ينزلها "التربي" إلى المقبرة، حمل الجثمان بمعية إخوته، تنساب دمعاتهم على كفنها الملتف حول جسدها الضعيف، اخترقت ابنتها الرجال المتزاحمين، تتحسسان جثمانها، تقبلانه مع أشقائهما، يسترجعون سنوات العمر، كفيها الحانيتين، وجهها الأبيض الباسم، صوتها الخفيض في حواراتها، وأدعتها.

يستوي الجثمان على الثرى، يُغلق القبر بالحجر، يُغطى بالتراب، يُرْس الماء عليه.

شعر بتكاسل وتراخٍ بعد وجبة غداء تكونت من فتة العدس، وشُرْبته، وفلفل مقلي، وقطع البصل في الخلّ، أكل شعبان بعض أوراق النعناع لعلها تذهب رائحة البصل التي عبقّت فمه، آثر المكوث في المنزل لسويغات إلى ما قبل المغربية.

تلوّنت شمس العصاري بالاصفرار، نهض أهل الحارة من قيلولتهم، دبّت الحركة، وعلت أصوات الأطفال في ألعابهم؛ وهم يتسابقون ركضا من حائط لحائط، ويقفزون فوق سبع الطوبات، أو وهم يلعبون الاستغماية، ولعبة كهرباء وشد السلك.

علّق عليهم مندهشا:

- أبنائنا يلعبون نفس ألعابنا الشعبية في زمن "التابلت والبلاي ستيشن".

سمعتة أميمة، وهي تقدم له كوبا من الشاي بالزعفران بيدها اليمنى، وفي يسراها كوب آخر لها، ردّت عليه وهي تشاركه التطلع إلى الشارع، قبل أن تعود إلى جلستها على الكنبه البلدي في الصالة، مرتشفة الشاي دون صوت:

-فعلا، أحفادك يلعبونها فوق السطح، وفي الطريقة أمام شققهم، وعلى السلام.

في وقفته، لمح الحاج قرني قاعدا في شرفة شقته بالطابق الأرضي، على كرسي من خشب البامبو، أسفله حشية إسفنجية، وأمامه طاولة مستديرة، وهناك إصص الزرع والزهور في الأركان، يرنو إلى الماشين في الشارع، شارد الفكر، زائغ النظرات، مقطب الجبين. كلاهما أقدم ساكنين في الحارة، شهدا تبدلاتها، وعمارة بيوتها، هدماء وبناءً.



رد قُرني تحيته، وصاح به:

-تفضل.. من زمان لم تزرني.

ارتشف الشاي سريعاً، ارتدى جلبابه الفضفاض، بأكمامه الواسعة، وصدريته المقلّمة، مشط شعره بعناية، متأملاً بياضه الذي لا يمكث فيه صبغ ولا حنّاء، فما أجمل أن تتعايش مع الزمن، لا أن تقاومه! تلك فلسفته، يرددها لربائنه ذوي الشيب، وهم يتضحكون على فلان أو علّان، رفاق الصبغة، مطاردي الشعيرات البيضاء في رؤوسهم أو لحاهم.

ارتقى الدرجات الخارجية لعتبة البيت، ومنها إلى بسطة المدخل الواسعة، برودة وسكون، فالمنزل قديم، ومن تبقى من ساكنيه هم كبار السن، آثر أولادهم السكنى في عمارات الأحياء الجديدة الممتدة شمالي المدينة وغربها.

اتجه إلى باب الشقة، قُرني في استقباله، تصافحا بحرارة سائرين إلى الصالة، طاولة مستطيلة، حولها كراس جلدية مزخرفة، وعلى الجدران صور لأولاده في أعمار مختلفة، وفي الركن مذياع عتيق، كالصندوق على حامل خشبيّ طويلٍ.

رحم الله الست رجاء، جعلت بيتها مملكة، من دخله استشعر راحة، لذا، كانت مقصد نسوة الحارة، يستشرنها، ويستمتعن بحكمتها في شقتها الواسعة النظيفة، فلا تجد ذرة تراب واحدة في أرضيتها، أما أثاثها العتيق فهو لامع، وكأنه لا يزال جديداً.

ولج قرني المطبخ لعمل قهوة، وآثر شعبان الجلوس على أحد مقاعد الأنتريه القديم، ناظراً إلى الجدار المقابل؛ صورة لقُرني ببذلة كاملة في عمر الثلاثينيات، مدبب الشارب، ناعم الشعر، باسم المحيّا، يشمخ بأنفه

وعينه، كان يتباهى دوماً بوسامته، التي جذبت جميلات الحي، والنسوة "العايقات اللونات"، وما أكثر مغامراته التي حكاها! مردداً مقولة نابليون بونابرت؛ أنه "لو تفرغ للحب لما ترك امرأة في حضن زوجها"، أما زواجه فكان مثل ما هو سائد في سنوات السبعينيات، رشحت أمه إحدى قريباتها من بيت "وافي"؛ الفتاة "رجاء" التي أجلسها أبوها في المنزل بعد الإعدادية، مدحت أمه أدبها وحياءها وطيب أصلها، وتكفل أبوه التاجر بمصاريف الزواج، المهر والشبكة وتأجير الشقة، فـ "قرني" ولده الوحيد على بناته الأربع. كان حفل عرسه؛ فوق سطح بيت عائلة وافي، ساعتها مال قرني على أصدقائه الشباب ضاحكاً: "أحلى شيء الليلة، عروسة وشقة ومفروشة، دون تعب".

حاملا الصينية وعليها فنجانا قهوة حضر قرني، يسير الهوينى، قهوة تركية دون وجه، ارتشفها شعبان دون تعليق. بكلمات قليلة حكى قرني:
-البتان تتبادلان المجيء كل يومين، للطبخ والغسيل.

-حفظهما الله، والأولاد؟

-يوم الجمعة، يحضرون مع الأحفاد.

صمّت بينهما، انشغلا بمتابعة مباراة في الدوري المحلي بالتلفاز، أحداثها مملّة، الكرة وسط الملعب، واللاعبون متجمدون، وحارسا المرمى شاردان.

-كأن النتيجة متفق عليها. هكذا علّق قرني، وأردف:

-تذكر أيام الشقاوة؟ كنتُ نجم فريق في الدفاع والهجوم.



يضحك ويضيف:

-كان شباب الحي وعياله يتجمعون في الساحة الشعبية، ويصرخون على مهارتي وأنا أتلعب بالكرة في الهواء بقدمي، وأزوغ بها من المدافعين، ثم تنتهي في المرمى.

مرات قليلة زاره شعبان، آخرها قبل سنتين، عندما دعاه في خطبة ابنته الصغرى، عانقت الحاجة رجاءً أميمةً طويلاً، شعرات بيضاء تسربت من طرحتها، وهي تقدّم أطباق الجاتوه، مع كوؤس العصير على صوانٍ فضية، ذات زخارف نباتية وهندسية.

ضحكت رجاء وهي تخبرهم أنها ورثتها من أمها، ولا تخرجها إلا للأحباب الغاليين، المدعوون هم الأقارب والأولاد وبعض الجيران. أشارت بيدها إلى شمعدان على "الشفنيرة"، وإلى عدد من الأواني الفضية داخلها. تحكي كيف وزّعت أمها جهازها على إخوتها البنات، وأوصتهن بالمحافظة عليه، وأن يورثنه لبناتهن. تتفحص النسوة الحاضرات زخارف الصواني، في منتصفها وعلى حوافها، ثمّة أوراق شجر وأغصان تمتد، تطول وتقصّر وتتفرع، وتتلاقى في مربعات ومثلثات ومثمنات، ملأت الفراغ الفضي اللامع.

بلون العناب كان فستان العروس، وأما خطيبها فارتدى قميصاً زهرياً، وكرافتة حمراء. وعلى أنغام العود، عزف "عماد" شقيق العروس أغاني زمان، وكلما أنهى، طالبته أمه بأغنية أخرى. استمعوا لأغاني "على بلدي المحبوب"، و"يا بلح بنور يا سيد العرسان"، وختم السهرة بأغنية "ع الحلوة والمرّة"، فانتشى شعبان، متذكراً عشقه لصوت عبد الغني السيد،

وأن لديه شرائط قديمة بصوته، فغنى مرددا:

ع الحلوة، المرّة مش كنا متعاهدين

ليه تنسى بالمرّة عشرة بقالها سنين

ع الحلوة والمرّة

انتبه في جلسته على صوت المعلق الرياضي، يعلن انتهاء المباراة
بالتعادل السلبي، تطلع إلى قرني؛ عيناه غائمتان، تنظران إلى اللاشيء،
تغضن وجهه، انتفخت تجاعيده، ما أقسى الهرم! هوان الجسد، وخفوت
البصر، وكف معروق، ومشى وئيد. سأله شعبان:

-ما لك يا حاج؟

دمعات ترقرقت في عينيه، تلوت على خديه، ثم تقطرت منحدره إلى
صدره، فامتصها جلبابه القطني، بجواره جلس شعبان، مرتبًا على أصابعه
النحيلة، ثم تلاقت يدهما، وجذبه ناحية باب الشقة:

-تعال، نشم هواء.

ثم هتف به:

-هل سمعت يا قرني حكاية الرجل وعربته القديمة، عرضها للبيع، ولم
يجد أي مشترٍ؟

رد مستفهما:

-طبعاً لأنها قديمة. وماذا فعل؟

-نصحه صاحبه، أن يضع عليها علامة مرسيدس، وستباع فوراً، وفعلاً
عمل بنصيحته.



-طبعاً، اشتراها رجل عبيط، انخدع فيها.

-لا، لم يبعها، وقال لصاحبه: هل أنا أهبل لأبيع مرسيدس.

غرقا في الضحك، وهما يتأملان شوارع البلد، الناس في غدوها ورواحها،
تمشياً على كورنيش البحر، نسמת عذبة تداعب وجهيهما، تمتاح من
خضرة الأشجار الباسقة على الجانبين.

عند جسر "الشيخ سالم"، اتجها إلى شارع توفيق الواسع، انحدرنا مع
انحداره، حتى استقرا جالسين في مقهى يقع على ناصية جانبية. أشار
شعبان إلى النادل، طالباً كوين من العنّاب المثلج، يتلوها فنجانا يانسون
دون سكر.

تأمل قرني المارة في الشارع، كبار السن يتسندون على أولادهم أو
أحفادهم، ولد صغير يتفافز ممسكا بيد أبيه الشاب، و بنت بفستان
أبيض، مرسوم على أطرافه زهور. إنها ساعة ما قبل الغروب، الحياة دبّت
في المدينة، وأشعة الشمس تتوارى حياءً خلف البنايات والبيوت، كأنها
تودّع البشر هنا، لتشرق على آخرين هناك.

ابتسم شعبان مستحثاً جاره ليبوح بمكنونه، لعل نفسه تروق، وعينيه
تصفوان.

كنتُ أرجع من سهرتي مع أصحابي، فأجدها محتضنة صغيري عماد،
تناغيه وتغني له. تبتدرني بالسلام، تسألني هل تحضر لي العشاء؟ أتثناء،
وأدخل غرفة النوم، أنام بملابسي، وعندما أستيقظ قبل الظهر، أجدني حافي
القدمين، والجلابية بجواري، أما هي ففي المطبخ تعدّ الغداء، وبجوارها
ابنتي "أحلام" تلعب في المشاية، وعلى كتفها "عماد" يشدّ شعرها، ويضرب

بقدميه كتفها وصدرها، وهي تضاحكه بصوتها الهادئ.

كانت سنوات أربع قد مرت على زواجنا، أنا كما أنا، العصر أَلعب الكرة مع الشباب في الساحة، والليل أسهر مع أصحابي على المقهى، أو أكون في عرس أنقُط وأرقص.

أنام للضحى، وأقضي نهار الجمعة عند أبي، يعطيني المصروف الأسبوعي، ويلح عليّ أن أقف معه في محل الغلال، فترد أمي بدلا مني، وتقول: "اتركه يا حاج يتمتع بديناه، قرني زينة شباب الحي، وزوجناه قبل أصحابه كلهم".

أنا كما أنا، كنت ملك "القعدة"، أنفث دخان "الجوزة"، وفي كل مرة أحكي عن مغامرة جديدة مع البنات، أُلقي بالنكات، أصحابي ينادوني بـ "الولد الجنّ"، أتباهى بقصة شعري "المسبسة"، والقميص المفتوح، وشعر صدري النافر، ولساني المعسول الذي يوقع المتزوجة قبل العازبة. وكالعادة، أعود ليلا، ألقاها جانب "الراديو"، تنتظر أذان الفجر، تنظر لي بحياء، تبتسم، أتركها لأغظ في نومي، وأصحو لأتغدى مع الأولاد، عابس الوجه من السهر، تمد يدها لي بقطعة لحم بعدما تنزع عظمتها، ثم تضع حبة أرز في فم عماد، وتضرب بكوعها نجوى، البنت الشقية، التي تشبهني في قسماتي، وتعشق ملاعبة أمها، (يضحك) تخطف نصيب أمها من اللحم، تعطس عليها، ثم تأكلها مرة واحدة.

تمتم شعبان:

- نَعَمَ الزوجة كانت.

-تركتني وحيدا.



صمت قرني، أنهكه الكلام، فلاذ بفنجان اليانسون.

-أحكي لك يا قرني، عن الزوج الذي ذهب لبيت حماه، بعد سنة لم يزرهم خلالها. استقبلته حماتُه تعاتبه وتلومه، فلما استفسر منها، قالت إن ابنتها إذا جاءت إليهم تطلب الفول الحراقي (الأخضر)، أو الفول النبات، مع الجبن القريش، وتشتكي أنها زهقت من اللحم والفراخ. وأكملت الحماة ضاحكة: يا بني هاتِ لها كل ما في نفسها.

أطرق الزوج خجلا، وعندما عادا إلى منزلهما، قبل يديها وقدميها. كان رزقه قليلا.

تنهد قرني، تحسس لحيته وقد طالت دون تشذيب، وتناثرت شعيرات بيضاء في عظمة أنفه، وبين حاجبيه، زفر طويلا، تحركت شفتاه مواصلا البوح.

مات أبي، تسلّمْتُ الدكان مكانه، تلاعب بي العمّال، شهور قليلة، وخوت الأجوّلة وفرغ المخزن، وضرب تجار السوق المثل بي، عن الأب الذي أنجب، والأم التي دلّعت.

طالبنتي شقيقاتي بنصيهن من البيت، فاضطرت لبيعه، بعدما ماتت أمي.

كان أولادي قد زادوا من اثنين إلى خمسة، بددت نصيبي من بيع البيت، كنت أجلس وحيدا في الدكان طيلة النهار، أنظر إلى الأرفف الخاوية. أحيانا كنت أغلق الباب عليّ، حتى لا يصك أذني كلام الزبائن وهم يترحمون على أبي الطيب.

أجلس على الطبلية مع أولادي، فلا أجد إلا طبقين، طبق الفول والبيض المقلي، وفي الغداء والعشاء العسل الأسود والجبنة. كانت رجاء تأخذ الأولاد لبيت أبيها، تطعمهم اللحم والفراخ والسّمك، وتقول: سأكل مع أبي عماد.

أيامها، تحمّلت هي عصبيتي، فكانت تأخذ الأولاد بعيدا عن صراخي. باعت ذهبها، اقتصدت في الإنفاق، وعندما كانت تنظر لي لأدبر أمور معاشنا؛ كنت أنفث دخاني سيجارتي في وجهها، وأصرخ بأني سأصرف، وأن أصحابي في ظهري، والحقيقة أنهم شلّة الفرفشة.

بعد أشهر، رأيتها قادمة إليّ في المحل، تحمل شنطة الخضار، بها باذنجان وفلفل، أحبيت رأسي، وهي تنظر إلى الدكان الخاوي، أخبرتني أنها كانت تقف مع أبي الحاج- الله يرحمه- في المحل أحيانا، وأنها رهنّت فضيَّات جهازها، ولولا أنها هدية من أمها لباعتها. همست: "لا تزعل يا أبا عماد، كل ضيقة لها فرج".

في اليوم التالي، وجدت أخاها الحاج أحمد، يوقف سيارة نقل قدام المحل، ويُنزل منها بضاعة، "رجاء" معه، أخبرني أخوها أنها ستساعدني في البيع، لنوفّر أجرة العامل.

الفجر كانت تستيقظ، تفضّر العيال، ويذهبون للمدارس، تخبرني أنها ستسبِقني للمحل، أقلب ظهري وأكمل نومي، وعندما أذهب للمحل في الضحى، أجد الحصّالة ملآنة، وبضاعة جديدة أنزلها التجار، تعوّض ما باعته.

ما إن تراني، حتى تدخل وتجلس بين الأجوّلة، وأقف أنا خلف طاولة البيع.



بعد شهور، فكّث رهن فضياتها وعادت للبيت. ألزمت أبنائي الذكور؛ أن يساعدوني في عطلة الصيف، وبعد المدرسة في الشتاء، وسرعان ما استعنت بعمال، واسترجعت سمعة أبي.

دمعاته تترقق، مسحها بطرف كمّه، يناوله شعبان منديلا، ثم يضحكه.

-ذكرتني يا قرني بحكاية أم البنات الأربع، كان حالها أشد منكم. البنت ماتت أمها وعمرها أربع سنوات، فتزوج أبوها أرملة لديها ثلاثة أولاد ذكور. ربّاهم، فلما كبروا، زوّجوها شابا من أقاربهم، وطردوها من البيت، عاشت مع زوجها في بيت متوسط الحال.

بعد سنة، أخبرها زوجها، وكانت تحمل ابنتها الرضيعة، أن هذا البيت ملك لصديقه المسافر، وأنهم سينتقلون لبيت آخر. تخيّل يا حاج، كان البيت الجديد غرفتين فوق سطح بيت قديم، وكان زوجها على باب الله، يعمل يوما، ويتعطل عشرة، كانت هي تربي الفراخ، وتبيع البيض.

تعجّله قرني ليكمل، أشار شعبان إلى السماء، كانت الشمس قد غابت، وعلا صوت أذان المغرب، تسنّدا في طريقهما للزاوية القريبة.

في جلستهما الثانية، استحثه قرني على الحكى، أصر شعبان على شاي بالنعناع. استقر كوبان على الطاولة، وبجانبهما طبق فيه أعواد النعناع الطازج، فاحت رائحتها عندما غمساها في الشاي، رفع شعبان حاجبيه قائلا:

-سنون مرت، وتتابع بناتها الأربع، منهن واحدة، كانت مريضة بنقص السوائل، كان لابد أن تأكل وتشرب كل ساعة. وكانت ليلة غاب

فيها القمر والنجوم، عاد الأب خاوي اليدين، والأُم ذبحت كل فراخها، فخرجتُ تتسلف من الجيران، فلم يفتحوا أبوابهم. وعندما رجعت كانت بناتها يتشاءبن جائعات، وزوجها منكسر.

تساءل قرني: -ناموا جائعين؟

-سقت بناتها الماء، وربتت على كتف زوجها، فخرج يصلي العشاء.

-وبعدها؟

-في نفس الليلة، جاءها أحد جيرانها عند بيت أبيها، أخبرها أن الشرطة قبضت على الأولاد الثلاثة، لأنهم أرادوا بيع البيت بعد وفاة أمهم، ولكنهم لا يملكون أية أوراق تثبت ملكيتهم، وشهد أهل الحارة قائلين: أنك أنتِ صاحبة البيت الأصلية. فذهبت هي وزوجها مع الجار، وقال الناس إنها الوريثة الوحيدة للبيت.

-سكنتُ فيه؟

-نعم، وكان بجوار البيت قطعة أرض ملكا لأبيها باعتها، وفتحت محل تجارة مع زوجها.

إنه الصباح الباكر، قرني وحيدا جالسا في الشرفة، صبّح عليه شعبان في غدوه اليومي إلى محلّه، فدعاه لشاي بالحليب، أخبره أن باب الشقة مفتوح.

دمعاته رقاقة، وهو يتمتم:

-تحملتُ تقلباتي، وعصبيتي، لم أرحمها في مرضها، كنت أصرخ فيها وهي مستكينّة.



-الله يرحمها.

-أولادي.. ، لم يغفروا قسوتي عليها.







غادياً كان في ميدان "الأوبرا" بالعاصمة، حاملاً حقيبته الأنيقة، لا يزال جلدها لامعاً، رغم مرور عقود من السنين عليها، اشتراها من محل جلديات في شارع طلعت حرب، وقصرها على سفرياته الشهرية للعاصمة؛ يوم الاثنين الأخير من الشهر.

في الماضي كان القطار متعته في السفر. الآن، أزالوا قضبانه من داخل مدينته، توسيعاً لشوارعها، ونقلوا محطة السكة الحديدية إلى خارج المدينة، فليس أمامه إلا الحافلات الكبيرة المكيفة، بمقاعد القטיפه، وناذتها الضيقة، يتأمل عبر زجاجها طريق الإسفلت السريع؛ تقلصت الرمال في جانبيه مع زحف العمران. يتذكر جلسته في القطار، شبابه واسع، وحكايات الركاب لا تنتهي؛ والخضرة على جانبيه، تتوسطها القرى ببيوتها المتلاصقة، ثم يجتاز القطار الجسر الكبير، ليجد نهر النيل واسعاً أسفله، فيغرق في تأملاته مع جريان مائه، ونسمات صافية محملة برداً عذب، وما أجملها في أيام الشتاء!

الهوينى يسير، قاطعاً الميدان الفسيح، لم يعد اسمه معبراً عن أوبرا الخديوي إسماعيل، بعد احتراقها العام ١٩٧١، صار مكانها موقفاً للسيارات متعدد الطوابق.

كعادته في يومه القاهري، سيفطر في مطعم جانبي، لا يضع صاحبه "الحاج علي" لافتة، فلا يحلو إفطار أهل الحي إلا من يده، لذا، يزدحمون منذ البكور أمام دكانه.

على مائدة فوق رصيف المحل جلس شعبان، أمامه طبق الفول بالزيت الحار، وثلاثة أرغفة من العيش البلدي الأسمر، مع طبق الفلفل،

وطبق ثالث حوى الباذنجان بالدقة، ورابع به السلطة الخضراء. أكمل بقية طقوسه بكوب شاي ثقيل، أحضره الصبي من نصبة المقهى جانب أحد القصور الأثرية المهجورة. رشفات متتابعة، وهو ينظر إلى الزخارف التي تزيّن مدخل القصر وواجهته، يرجع بناؤه إلى قرنين أو ثلاثة؛ نوافذه ذات مشربيات، وأحجاره ذات زخارف، تساقط طلاؤه فبرزت عروق الخشب من جدرانه، معلق على بابه لافتة زرقاء، بهتّ لونها، تشير إلى أنه أثر تاريخي، يتبع وزارة الآثار.

اتجه إلى محل بلدياته، ابن حي الحواتم بالفيوم، إنه "سعد" السنّان؛ الكائن بالجماميز ليسنّ مقصّاته ويُجليها. في الماضي كان المَسنُّ حجرا دائريا، يحرك "سعد" محوره ضاغطا بقدمه اليسرى على دواصة حديدية، وساعتها يتبادل مع شعبان آخر أخبار الحياة والأحياء، يحكيان عن الزبائن وطرائفهم، فما يجمعهما هو شفرتا المقصّ المجلوتان، أحدهما يسنّهما، والثاني يستخدمهما، وكلاهما لا يشبعان من مجالسة الناس، ولا يملّان من سماع أخبارهما.

الآن، المسنّات الكهربية يتطاير منها الشرر، دقائق وتلمع شفرتا المقصّ، أما سعد فقد احدودب ظهره، وضعف بصره، واكتفى بابتسامات يوزعها على زبائنه وهو يحاسبهم في جلسته على مدخل الملح خلف مكتب صغير، يشيعهم بكلمات طيبة جلّها أدعية وأمنيات.

تهلل اليوم لرؤيته شعبان، ليسمع آخر أخبار البلد؛ من مات، من تزوّج، من أنجب؛ في دائرة معارفهما. ثم نهض شعبان واقفا، فاستمهله سعد بجذبة من يده، فأدرك طلبه الأخير، فاقترب من أذنه، وهمس عن



سيدة عجوز في التسعين من عمرها، استضافوها في برنامج مَن سيربح المليون، فطلبت الاتصال بصديق، فرد عليها المذيع، بعدما زهق من إعادته الأسئلة عليها مرات، وهي لا تسمع، قائلاً: "أقطع ذراعي يا جدتي أن يكون أحد من أصدقائك عايش ليومنا". ردت عليه العجوز سريعاً: "اقطعها يا أخي، جرتي "بهانة" أكبر مني بسنتين، ويا ليت تتصل بها". ضحك سعد، وعقَّب: لم نصل لسنّها بعد.

تطلع لساعته ذات العقارب الذهبية؛ إنه وقت ذهابه إلى سور الأزبكية. خطوات اجتاز بها ميدان الأوبرا، ناظراً بإعجاب لتمثال إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا ممسكاً باللجام، يكاد يقفز بحوافر حصانه، كأنه عائداً منتشياً بالنصر من معركةٍ في الشام، أو الأناضول.

أسرع، متفادياً العربات الدائرة حول الحديقة التي تتوسط الميدان، ثمّة مبنى يحمل صفات عمارة القرن التاسع عشر بزخارفه الإيطالية، ومبنى آخر يشمخ عالياً، يشير إلى عمارة العولمة في القرن الحادي والعشرين؛ واجهات زجاجية لنوافذ معدنية، وطوابق ذات أسقف قصيرة، تحوي شققاً ضيقة، ومكاتب إدارية، وأسفلها محلات ملابس شبابية بموضاتها الصاخبة.

اقترب من حديقة الأزبكية، خلفها السور الممتد؛ الأكشاك متجاورة، الكتب متراكمة، يعرفه البائعون لتفحصه بعناية عناوين الكتب، وأعداد المجلات القديمة، يعلمون أنه سيملاً حقيبته الجلدية، مع كيس بلاستيكي بعد تطوافه. كما هي عادته، سلامه يسبق سؤاله، وتعليقاته الضاحكة تلازم كلماته، وقد عودهم إعطاءه سعراً نهائياً، دون فصال.

ساعتان، تلمّس فيها الكتب وعابنها، شرب خلالها التمر الهندي البارد، اشتراه من شاب يحمل صينية، تراصت عليها أكواب ورقية بها عصائر مختلفة، يدور بها على البائعين والمشتريين.

أزف وقت الانصراف، قرر الذهاب لتناول بعض "السندويشات"، فقد تعبت قدماه، وانحدرت قطرات العرق فأغرقت ياقة قميصه، آثر -أولا- أداء صلاتي الظهر والعصر جمعا وقصرًا، في مسجد الأزيكية بظهر الحديقة، ثم أغمض عينيه مستمتعا بهواء التكييف البارد، حتى إذا أخذته سنّة من النوم؛ انتبه، فأعاد قراءة عناوين الكتب التي اشتراها، حاملًا بساعات قراءة شيقة.

دخل مطعمًا ذا لافتة أضواؤها زاعقة، اتخذ مقعده خلف طاولة مغطاة بمفرش شفاف، واستقر بين يديه طبق، يحوي شطائر ثلاث ملفوفة، تفوح رائحة الكفتة المشوية منها، ومعها علب صغيرة بها سلطة الطحينة، وقطع الجزر واللفت والزيتون المملحة.

أكل متطلعًا -عبر النافذة الزجاجية- إلى الشارع الواسع الحايي خليطًا من الناس والسيارات والدراجات والمحلات، جلست قبالتة على الطاولة أسرة صغيرة؛ زوجان شابان، ومعهما طفلان، انشغلت الأم بإطعامهما فطائر البيتزا، وآثر الأب أن يضحكهما، بعدما دبّت الغيرة بينهما، فقد أجلست الأم الصغير على حجرها، ووقف الكبير بجوارها.

حانت التفاتة منه، لم يصدّق عينيه، تفحصها جيدًا، إنها "شادية"، بين قدميها طفلة عمرها بين الرابعة والخامسة، منهمكة كانت في تغليف وجبات التوصيل السريعة، تُضحكُ الطفلة، ويدهاها منشغلتان. وقف



أمامها، تصلبت عيناها، هتفت:

-عم شعبان .. وترقرقت دموعها.

بلا موعد التقيا، وبلا مقدمات تحادثا، في سوق الثلاثاء.

كان شعبان قد جاء لشراء فراخ بلدي وأرانب، قد وعد أحفاده بها، وبحكم خبرته المتراكمة، فإن عينيه تميزان الدجاج المرَبِّي في البيوت، عن دجاج المزارع التجارية. طاف السوق من أوله لآخره، ثم عاد إلى بائعة؛ عرف من حوارها أنها قروية من مركز "إطسا"، اختار أربع دجاجات وأرنبين، وكيسا مملوءا بالبيض البلدي، وأشرق وجهها وهي تدعو له بالبركة، وبالهناء والشفاء مع أحبابه.

انتبه على صوت أجش يألفه، إنه صاحبه القديم الأسطى توبة، يرتدي كعاداته بذلة هيئة النقل العام بزرقتها الباهتة، حيث يعمل "كمساريا" على الحافلات، أحضان متبادلة، لهما شهور طويلة لم يلتقيا، تفاجأ به يطلب منه:

-ليتك يا شعبان تنصح ابنتي شادية.

-خيرا يا أسطى.

-متمسكة بشاب متقدم لها، وتقول إنها فرصتها الأخيرة قبل العنوسة.

- الزواج قسمة ونصيب.

بعيدا عن زحمة السوق، انتحى توبة بشعبان، كأنه كان يبحث عمَّن يفضل له. غصة بحلقه، وهو يسترسل حاكيا عن أولاده السبعة، ثلاث بنات، وأربع ذكور، حلّم بتعليمهم جميعا. أقسم أنه يأكل أحيانا وجبة واحدة في يومه، وأنه إذا أنهى عمله في هيئة النقل عصرًا، توجه إلى

محل بقالةٍ يعمل فيه إلى الليل. ثم يعود فيتمدد على الكنبّة، تأتي له زوجته بطبق العشاء، مغطى برغيف خبز، يأكل، وهي تحكي عن العيال، وطلباتهم، يغمض عينيه وبقايا الطعام في فمه، تناوله كوب ماء، وتسندة لينام في الفراش، يفتح عينيه، مصرًا أن يلقي نظرة على أولاده في غرفتهم، ينامون متجاورين على سريرين قديمين، والبنت في حضن أختهن الكبرى شادية.

في الصباح، يتجمعون على أكواب الحليب، وقطع الخبز الساخن. قبل ذهابهم؛ يقبلون رأسه، وهو يعطيهم أرباع الجنيهات وأنصافها المعدنية والورقية، يتحسس رؤوسهم، قبل أن يبدأ يوماً يعرف أنه مشابه للبارحة. حكى أيضاً، كيف مضت السنون، وكبر الأولاد، "واقتربنا من نهاية المشوار، ابني الأكبر "نبيل" سيتخرج مهندساً بعد شهور من الجامعة، يليه "محمد"، سيعملان ويساعداني، وتتحسن حياتنا". تساءل شعبان:

-وماذا عن شادية؟

خفض "توبة" بصره:

- تجاوزت الثلاثين، حظها من الجمال قليل، لم يتقدم أحد، والناس تعرف ظروفنا، بأننا غير قادرين على تجهيز البنات. هي أنهت دبلوم المدرسة الفنية، وعملت في مشغل ملابس، وساعدتني براتبها القليل.

-من تقدّم لها؟

-شاب عمره ٤٠ سنة، من حلوان بالقاهرة، بدون شهادات، شغال في مطعم، صاحبة المشغل خالته، أقنعت شادية به، ولن يطلب جهازاً منا. ربت شعبان على كتفه، وأخبره أنه سيزوره مع أميمة زوجته.



-عمري ٣٦ سنة يا عم شعبان.

أردفت، ودموعها تجري على خديها:

-تزوجت كل البنات في سني، ومن هن أصغر مني. بنتك حسناء
نفس عمري، أولادها الآن في المدرسة.

-هذا حقا يا بنتي، ولكن عريسك لا نعرف أصله، وشغله ليس ثابتا.
-لو ضيعتُ هذه الفرصة، سأجد نفسي زوجة لعجوز أمرّضه.

أنهت شادية ورديتها في المطعم، سارت بجانبه، وبينهما صغيرتها،
أخبرته أن يومها يبدأ من الخامسة صباحا، تضع ابنتها في حضانة مجاورة
للمطعم الساعة السابعة، وتحضرها في الساعة الثالثة، وتمكث معها حتى
تنهي ورديتها في الخامسة مساء.

ساقاها منهكتان فتمشي الهوينى، ريقها جاف فتتكلم ببطء، ذراعاها
يرتجفان بفعل عمل يمتد عشر ساعات، تعلقت طفلتها بثوبها، فكأنها
تجرّها جرا.

-ماما، من هذا؟

-جدو شعبان.

ابتسمت الطفلة، رددت كلمة "جدو" مرات، حتى اعتادها لسانها.

-ما اسمك يا أموري؟

-رباب.. يا جدو.

حملها بين ذراعيه، كانت ترتدي بنظارة قصيرة وفانلة، تلاعبت بأصابعها في أنفه وخديه، رفعها وغاص بفمه يأكل بطنها، أطلقت ضحكات عالية، جذبت أنظار المارة حولهم. قال باسم إنه سيوصلهما لأقرب مكان للبيت، ساروا إلى محطة مترو "العتبة"، اشترى أكياس رقائق البطاطس، وبعض البسكويت والشوكولاتة، وزجاجات ماء، وعلب عصير.

في المترو، جلس ثلاثتهم متجاورين، تعلقت بعنقه "رباب"، رفعها، لتستقر فوق عنقه، وتُدلي قدميها على كتفيه، تضرب رأسه بكفيها، وتصفق سعيدة. ابتسامة واهنة من أمها، أخبرته أنها تركب ثلاث مواصلات حتى تصل لسكنها على أطراف حلوان، هناك في عمارات الإيواء، شقتها غرفة واحدة، وحمام، والمطبخ في ركن منها.

بكت، متذكرة يوم زواجها، حضر العريس مع أخيه من القاهرة، كتبوا العقد عند المأذون، في حضور أبيها وشقيقها نبيل ومحمد، ارتدت فستانا أبيض مستأجرا من مشغلها.

حسب الكلام المعسول الذي قاله العريس، فإنه سيسكن مع أمه عدة شهور، في انتظار شقة سيحصل عليها قريبا، وأمّه طيبة ولديها معاش أبيه المتوفي، وتخدم نفسها، واصلت شادية حكيها: "عندما وصلنا، وجدنا البيت شقة ضيقة في المساكن الشعبية، استقبلتني أمه بابتسامة مصنوعة، مشيرة لغرفة بها أثاث قديم، سرير ودولاب، وهي تزغرد، ثم تفاجأنا بإخوته يعيشون معنا في الشقة. تخانقَ معه أخي وأبي، ولكن العريس قال لهما بكل وقاحة، وهو يمسك سيجارة حشيش: "هذه زوجتي في عصمتي، وفي بيتي".



طلب أبي أن أعود معه، ويطلقني منه، ولكنني سكتُ، هل أكون مطلقة من أول ليلة؟ عشتُ معه، وبعد شهر، طلبت أمه أن أعمل في مطعم جانب البيت، لأساعد في المصاريف، أنجبتُ ابنتي، وتحملتُ؛ لعل حاله ينصح بعد الإنجاب، ولكنه كما هو، سليط اللسان، حشاش، ووجدت أخاه يتلصص علي وأنا نائمة. بعثُ ذهبي القليل، وأجرت شقة في مساكن الإيواء، نقلت إليها فرشي القديم. في ليلة، عاد مخمورا، وكان عاطلا من شهور، عاتبته، فضربني، ورمى عليّ يمين الطلاق".

وصلوا إلى محطة حلوان، نزلوا سلامها، البنت نائمة على صدر شعبان، سألتها:

-ولماذا لم تعودي لأهلك؟

-وماذا أقول لهم؟ فضّلت زوجي عليهم، لقد بصق أخي نبيل في وجهي ساعتها.

- سنسافر لهم الآن.

غير مصدقة؛ نظرتُ إليه، فأخبرها:

-اتصلت بوالدك، عندما كنتُ في البقالة، وأخبرته بظروفك، فطلب إحضارك معي، وهم الآن في انتظارك، ومشتاقين لك، نذهب لنحضر شنطة الملابس.

ثلاثتهم في الحافلة، شادية ممسكة بهاتف شعبان، دموعها منثالة، وهي تحدث أمها وشقيقاتها، ومن قبلهن أبوها وإخوتها، أعلموها أنهم جددوا البيت، وغَيروا الأثاث، وأن "نبيلاً" سيتزوج بعد شهور، وأختها نوال مخطوبة لحمدي، ابن عم فؤاد.

رباب على حجر شعبان، يحكي لها عن النحل، الذي بنى بيته من الشمع في شق نخلة، وملاً خلاياه بالعسل، فهجمت عليه حشرات دبور البلح، حطمت الشمع، وأكلت العسل. طارت النحللات هاربة، عادت الملكة العجوز، جمعت شغالاتها من جديد، واختارت شجرة سنط عالية، تخلو من التمر، أعادت بناء بيتها، من شمع أبيض، وعاد النحل مائلاً بطونه برحيق الأزهار، ليفرغه عسلاً في خلاياه.







-عليكم السلام.. أهلا يا بني.

ردّ الأسطى "رجب المكوجي" السلام على الشاب الأنيق المهندم الذي وقف أمامه يسأله عن الآنسة "ضحى منير"، رفع حاجبيه مستفهما، فأوضح الشاب:

- ودّي أخطبها.

-ربنا يتمم بخير.

-أريد معلومات مؤكدة عن أهلها.

انحنى رجب على طبلية الكي العريضة، واضعا رجليه اليمنى على ذراع مكوته الحديدية، بعد تسخينها لدقائق، ليكوي بها جلبابا بلديا قطنيا مفرودا أمامه، ثم تطلع إلى الشاب:

-أدلك على من يفيدك؟

-من؟

-عم شعبان، يسكن معها في نفس العمارة، في الدور الثاني، اسأله.

-أيمكنني الاتصال به قبل زيارته؟ أعطني رقمه.

ابتسم رجب، وأكمل كيّ الجلباب كحلي اللون، وقال:

-زرّه في شقته بعد العصر.

انصرف الشاب، بينما قال مساعد الكوّاء، وهو يعمل بمكواته البخارية:

-ألم يجد إلا ضحى؟

بغضب، رد رجب:

-اخرس، هذه أعراض بنات.

جالسا كان على كرسي وثير، متأملا أثاث الصالون بزخارفه المذهبة، ومقاعدده وكنباته المغطاة بقماش قطيفة عَنّاي اللون، وفي منتصف الحائط مرآة معلقة، بإطار مذهب مزخرف، وعلى بقية الجدران لوحات تشكيلية بديعة، عن النيل، والبحر، والجبال.

قدم شعبان حاملا صينية، عليها كيك، وبعض المحمصات، وبجانبتها كوب ماء مثلج، جلس قبالة متطلعا بوجه ناضح بالبشر.
-أهلا وسهلا بك.

راحة استشعرها الشاب، عندما طرق -بخجلٍ وترددٍ- باب الشقة، سمع صوتا من خلفه مرحبا به، التفت ليجد عجوزا صاعدا السلم، قادما من صلاة العصر، في الجامع القريب، تتمم الشاب بأنه يريد في أمر خاص، فتح العجوز الباب، متنحنا، وأشار لغرفة الاستقبال إلى اليسار، ثم استأذن ليحضر واجب الضيافة.

عرّف الشاب نفسه:

-اسمي أحمد قاسم، مهندس ميكانيك في شركة خاصة.

ناوله شعبان قطعة كيك، بوجه بشوش.

-قال لي أهل الحارة، إنك ستفيدني عن الآنسة ضحي، وعن أسرتها.



تساءل شعبان:

-ولماذا لم تتكلم معها بنفسك؟

- كلمتها مرات بأحاديث قصيرة، لم أفاتها في زواج، وبصراحة ..
(سكت)

استحثه شعبان بعينيه، ليكمل.

-خرجتُ من تجربة زواج فاشلة، وللأسف كانت عن حب، عانيت
كثيرا من أنانيتها، وتدخلات أهلها، وماتت كل المشاعر بيننا.

-كيف عرفتِ ضحى؟ هي تعمل في شركة المياه.

-كنت في زيارة للشركة، ورأيتها، وأعجبت بها، وقررت السؤال عنها،
وعن أهلها، ولكن سمعت كلاما متناقضا من زملائها في الشركة، ومن
بعض أهل الحارة.

-ماذا قالوا؟

أحنى أحمد رأسه، وتمتم:

- أفضل أن أسمع منك يا عمي.

-ماذا قالوا؟

بخجل أجاب الشاب:

-قالوا كلاما من شاكلة أنها متحررة، لا تراعي التقاليد، وتسكن وحدها
في شقة عائلتها، بعد وفاة والديها، ورفضت السكن مع أعمامها أو أخوالها.

"ضحى" البنوتة الصغيرة الجميلة، بصفيرتها المتدلّيتين إلى منتصف ظهرها، لهجتها قاهرية؛ تُكثّر من "الإيه والآه" عندما تتحدث مع بنات الحارة، أو البقال أو بائع العيش. يتأملون وجهها الأبيض الرقيق، تشبه البنات الصغيرات في الأفلام العربية القديمة، ترتدي فساتين قصيرة زاهية الألوان، فلم يحدث أن سارت في الحارة ببيجامات البيت.

والدها "منير" الكيميائي بشركة المياه العذبة، وأمها مدام "حياة"، ابنة الذوات كما لقبّتها نساء الحارة، تعمل في نفس المحطة مع زوجها. استأجرت شقة في الدور الرابع، بعدما حضرا للبلد، ثم ترقّيا، فصار الأستاذ منير مديرا عاما للشركة، وزوجته رئيسةً لمعاملها.

هكذا، حكى لشعبان، عندما قابله أول مرة نازلا على سلم العمارة، ومشيا معا لصلاة الجمعة، مؤكدا حبه لأهل الحارة وجيرانه، وهو الذي تربى في حي مصر الجديدة، وكان أبوه مهندسا لصيانة الطائرات في مطار القاهرة، أما "حياة" فهي زميلته في الجامعة، تزوجا عن قصة حب، شهدت عليها أروقة الجامعة، راقبهما الطلاب متهامسين عن رومانسيتهما الحاملة. فقد اعتادوا رؤيتهما جالسين متجاورين من السنة الأولى إلى السنة الرابعة في مدرجات قسم الكيمياء بكلية العلوم، جامعة عين شمس.

ساعتها، علّق شعبان؛ بأن قصته تشبه أفلام عبد الحليم حافظ، ولولا أنه راويها بنفسه، لما صدّقها، فحب الجامعات أشبه بزجاجة الكولا المثلجة، تشتاق لها في وقت الحر، ولذّتها تنتهي مع شربها، وهكذا الحب يُنسى مع زحمة الحياة، وتقاليد العائلات.

مع كل صباح، تركب "حياة" جانب زوجها في سيارته، وفي المقعد الخلفي، تجلس وحيدتهما "ضحى"، عيون أنثوية تراقبهم من النوافذ والشرفات، تتفحص الفساتين الأنيقة التي تبذلها الزوجة كل يوم، بشعرها



الذهبي، أما ضحى، فهي بالمريلة الوردية ذاهبةً إلى مدرسة الأميركيان الخاصة، تنظر ببراءة لأولاد الحارة في طريقهم إلى المدارس الحكومية، مرتدين المرابيل الكاكية، حاملين حقائب جلدية أكثرها مستعمل.
رفض منير الانتقال من العمارة، فسكانها طيبون، وأهل الحارة مثلهم، وهو رجل يحب العشرة، وقد اشترى الشقة من صاحب العمارة.

- من يد أمها مدام "حياة" أكلنا "الشركسية"، الله على جمال طعامها!
استفهم أحمد، وقد تشوّق لحديث شعبان:
-الشركسية؟!

-هذه أكلة "أبناء الذوات"، تتكون من الدجاج وعين الجمل والكرمة والأرز واللبن والملح، مهما شبعت منها؛ تشناق لها أكثر.
-كانت تعزمكم عندها؟

-كانت توزّعها على الجيران في أطباق بلاستيكية ملفوفة بالورق الفضي، في رمضان وفي الأعياد، تحملها ضحى لنا.

دأبت البنوتة "ضحى" على الوقوف في شرفة شقتها؛ تراقب ألعاب عيال الحارة وبناتها في الشارع، خاصة في عطلة الصيف، تضحك على لهوهم، وهي الممنوعة بأمر والديها أن تكون معهم، حتى لا تتعلم كلمات العيب، أو الشتائم.

وقتها تقضيه بين أفلام الكارتون بالتلفزيون، ومجلات الأطفال، وأفلام الفيديو، هكذا حكّت عنها "حسنا وحنان"، ابنتا شعبان، عندما كانتا تصعدان لزيارتها، أو تأتي ضحى لزيارتها، محضرة معها مجلات "ميكي، سمير، ماجد"، وقصص المكتبة الخضراء، وفي كل مرة، يكون حذاؤها وشريطة شعرها بلون فساتنها، أما تسريحاتها، فهي متنوعة ما بين ذيل الحصان، أو الضفائر، أو الانسدال. كانت الحاجة "أميمة"، تتأمل ملابسها وجمالها، ثم تصلي وتسلم على النبي الأكرم، وتكلّمها بنفس لهجتها القاهرية، فتتعمد إمالة الهاء، وترقيق الظاء والطاء، ثم تعود للهجتها المحلية، بتسكين الحرف الثاني، وتفخيم الهاء، وتستخدم متعمدة بعض مفردات الحارة، فتحكي عن الستات و"الولايا".

-ما الذي جذبك في ضحى؟

تفاجأ أحمد بالسؤال، تفكّر، وأجاب ببطء، وكأنه يزن الكلمات:

-أحب البنت الأنيقة المثقفة، وقد حضرتُ مرات للشركة، وراقبتها، فوجدتها لا تضاحك الرجال، وتتعامل رسمياً معهم.

-نعم، وهكذا تعاملها مع الجيران، كلامها قليل، لا يزيد عن تحيات الصباح والمساء.

-قالوا عنها إنها متكبرة.

-هي تَوَقّف كل واحد عند حده، قبل أن يشتط أو يشتد.



بالإنجليزية، درست التجارة وإدارة الأعمال في جامعة خاصة بمدينة ٦ أكتوبر، تعود في نهاية الأسبوع، مغرب يوم الخميس، يعرف حضورها بنقرات أصابعها الخافتة على باب الشقة، هي عادتها منذ صغرها. تسرع حسناء أو حنان أو أميمة لفتح الباب، فيرونها حاملة حقيبة ملابسها، تخبرهن أنها وصلت، وستنزل لهن بعد سويعات، لتسهر عندهن، لتحديثهن عن أروقة الجامعة وحوارات الطلاب بالإنجليزية، وعن سياراتهم الفارهة، وعندما يتطرقن إلى الشباب والحب، تمط ضحى شفيتها ساخرة من ميوعة بعضهم، وأنها لا تريد أن تكون قصة في حياة شاب يتباهى بعدد من أحببته.

-تم تعييني في إدارة العلاقات العامة في مقر الشركة.
هكذا، أخبرت ضحى حسناء، عندما تقابلا في الشارع، علقت حسناء بالمثل الشعبي:
يا بخت من كان العمدة خالها.

ردت ضحى مصححة:

-يا بخت من كان "باباها" المدير العام.

صعدتا سلم العمارة، ودلفتا إلى غرفة الصالون، حكّت ضحى أن فرصة عمل جاءتها في العاصمة في شركة استثمارية، "ولكن "مامتي" رفضت، وأصرت أن أكون معها". اكتسى وجهها بالحزن، وهي تخبرها عن مرض والدها، وأنه في إجازة صحية.

-توفي والدها بالمرض الخبيث، ثم ماتت أمها بعده بسنتين، وعاشت البنت وحدها، رفضت العيش مع أعمامها أو أخوالها، فلا تطيق قيودهم، وكانت حجتها أنها تعيش في شقة والديها، بحكم شغلها في الشركة.

تساءل أحمد:

-أهذا كل شيء يا عم شعبان؟

-لا .. هي مطلقة.

تفاجأ أحمد، فأردف شعبان:

-كان زواجها لمدة شهرين، من ابن خالها، بضغط من أمها قبل وفاتها بسنة، ولكنه كان متعدد العلاقات النسائية، واضطرت لرفع قضية خلع، متنازلة عن كل شيء.

ذلك آخر ما قصه شعبان على أحمد، الذي أطرق، ثم نطق:

-كيف أفاتها؟ لا يمكن أن أزورها في البيت؟

- سأكلمها أنا، وأتصل بك.

-عندي شقتي في المدينة، وسيارتي الخاصة، وأنا من عائلة قاسم في قرية "الصوافنة".

فتح باب الشقة، وجلس في الصالة، في موعد وصولها، يعرف صوت أقدامها وهي صاعدة على السلام، فكعب حذائها مدبب، وتصدع سريعا، بأنفاس متلاحقة.



توقفت متفاجئة، استقبلها باسماء، وهو ينادي "أهلا بالعروسة"،
وخلفه أميمة.

أحنت رأسها خجلا، وهو يفاتحها عنه، ويُعلمها أنه قد أرسل مَنْ
يسأل عن عائلته في قريته، وعن أخلاقه في شركته، والكل مدحه. هو في
السابعة والثلاثين، وحكى لها عما قاله عن حياته، وعن عمله، وعن آماله.
-ولكنه مطلق، أخاف أن تتكرر تجربتي، كرهت الارتباط.

-أخلاقه طيبة، وهو شخص مهذب، الطلاق نهاية، وهو أيضا بداية
لحياة جديدة.

كانت صريحة، واثالت كلماتها بمرارة، وهي تصف معاناتها في زواجها
القصير، وقسوة طليقها، ومساومات خالها، ومعاداة العائلة لها، فليس في
تقاليدهم الخُلع.

أطال أحمد إنصاته حتى فرغت، ثم حدّثها مبتسما، عن حياته في
الجامعة، وعن أحلامه بتأسيس مشروعه الخاص، سيكون مصنعا للإسفننج
السلولوز، يبدأ صغيرا، ثم يكبر.

استكانت نفسها، ابتسمتْ، ألجمَ لسانها الحياءُ، انحدرت دمعات
قليلة، براءة تغلف وجهها، بدتْ في عيني شعبان البنوتة الصغيرة، ذات
الشريط البنفسجي في شعرها، تضحك عيناها الخضراوان، وتتلاألآن مع
حمرة وجهها الأبيض، وكأن أمها "حياة" حاضرة بينهم.

هتف شعبان: -يا بخت سعيد بسعيدة.

نظرا إليه مندهشين، فحكى بتؤدة:

- "سعيد" مات أبوه وتركه طفلا، فرباه عمه، فلما صار شابا، تقدم لبنات العائلات، ولكن تقاليد بلدهم كانت توجب على العريس تحريك صخرة كبيرة، ولأن سعيد نحيل الجسد، وقصير، لم يستطع، فضحك الناس عليه، وتعقدت نفسيته، وركبه الحزن، وآثر العيش وحيدا في المنزل الذي ورثه من أبيه، حتى تفاجأ ذات ليلة بابنة عمه "سعيدة"، تنادي عليه وتناوله صينية الطعام، كان يتعامل معها كأخته، ولكن هذه المرة رآها عروسا، إلا أن زحزة الصخرة تعجزه، ففاتح العم ابنته، بأن تتنازل عن هذا الشرط، ولكنها أصرت، وفي اليوم الموعد، حاول سعيد تحريك الحجر الكبير، فإذا به يتحرك، وتفاجأ بأن سعيدة تعاونه، فصاح الناس "يا بخت سعيد بسعيدة".

أقبلت أميمة حاملة الشربات، وقطع الشوكولاتة، ثم وضعت أصابعها أسفل أنفها، وفتحت فمها، وأطلقت زغرودة لم تكتمل؛ لإشارة خجلي من ضحى، فأصرت عليها، فخرجت زغرودة، تجاوزت معها نساء الحارة وبناتها، كعاداتهن في الأفراح، وصعد المكوجي رجب، وصبيه يباركان، ووراءهما وأهل الحارة والجيران.





عند اقترابه من المحل، تباطأت قدماه ثم توقف، يتوجب عليه الانتظار على العتبة من الثامنة صباحا، لحين حضور الأسطى "سيد أغا"، رغم أن موعد وصوله عادة ما بين التاسعة والعاشر، ولكنه يُلزم عماله بالتواجد مبكرا.

في وقتهم، تطلع الشاب "وليد" إلى زميله العاملِ معه؛ "عمر" في الثلاثينيات، يسكن حي "البارودية" مع زوجته وابنته الصغيرة في غرفتين في بيت والده، مقصوّر عمله على تنظيف المحل، ومناولة العُدّة للأسطى، وتقفيل الأجهزة بعد إصلاحها، دائما صامت، مطيع، يطأطئ رأسه موافقا؛ حامدا ربه على أجره الشهري الثابت، وإن قلّ، فقد تنقّل "شيّالا" بين سوق الخضار ودكاكين الشارع التجاري، وهنا يتولى حمل الأجهزة إلى سيارات الزبائن، أو توصيلها إلى منازلهم، قانعا بـ "البقشيش"، جنيهات يُقبّلها ثم يدسّها في جيبه دون عدّ، وعند انصرافه ليلا، يحمل أكياسا بها فاكهة، ومعها طلبات البقالة.

أما "نايل" فهو فتى في الثانوي، يعمل في الإجازة الصيفية، لتوفير مصاريف دراسته، دوما ما يكون واقفا على العتبة، أو في المدخل، لا يزيد عمله عما يأمره الأسطى، وفي ليلة الجمعة، يفرح بأجره الأسبوعي، فيتعشى سندويشات الشاورما، ويجوب الشوارع مع أصحابه، وربما يجلسون على مقهى، وهو يتحسس محفظته من آن لآخر.

حضر "سيد" متغضن الوجه عابسا، ناول "عمر" مفاتيح المحل، ليفتح أقفاله، ثم حرك بابَه الحديدي، فالتف الصاج إلى الأعلى. أوامر سيد المكرورة بالكنس ورش الماء في الشارع. أشار لنايل لإحضار "سندويشات" الفول والطعمية من المطعم المجاور، مع كوب الشاي. يأكل منفردا، ثم تتتابع سجاجره في فمه، وهو يصلح الأجهزة.

شذرا ينظر إلى "وليد"، مشيرا إليه لجمع القطع القديمة المتناثرة، ورضها في الأدراج لعلها تنفع يوما، ثم ذكره بأن عليه الذهاب لشراء قطع غيار جديدة.

في مرات سابقة، اضطر وليد للسفر للقاهرة، لإحضار قطع غيار، غالبا ما تكون لماركة جهاز نادر، يطوف من أجلها على محلات شارع رمسيس، وما حوله.

واجب على وليد أيضا حمل شنطة العدة، والسير وراء "سيد" إذا توجه لإصلاح ثلاجة كبيرة، أو غسالة "فل أوتوماتيك"، يراقب الأسطى، وهو يفحص بمهارة الجهاز، ثم يحدد الخراب، ويذكر ثمن التصليح، قبل أن يشمر عن ساعديه.

يتفاخر "سيد" بمهارته وخبرته التي تعود إلى أكثر من ثلاثين سنة، مسترجعا تعلمه الصنعة في القاهرة، في حي باب اللوق، فقد عمل في ورشة امتلكها خواجه يوناني؛ كان من القلائل الذين تعلموا تصليح الأجهزة في سنوات الأربعينيات، وظل الخواجه في مصر مع زوجته الأرمنية اللبنانية، التي كانت تأتي للمحل، وتشرف عليه، وتحصل الأجرة.

عندما يروق مزاج سيد، يجلس على العتبة، ينفث دخان سجائره المتتابعة، ويصف ثلاثات زمان ومحركها الذي كان يعمل بالغاز، والغسالات الأوتوماتيكية الضخمة التي كانت تحتل ربع غرفة، وكيف ظل مع الخواجه، حتى أجاد وأتقن، وكانت أصابعه تُلَفُّ بالحريز.

مات الخواجه، وتزوجت امرأته شابا كان عاملا عندها، مثل عليها دور العاشق الولهان، وأنها لا تزال نابضة بالأنوثة، فسجّلت المحل والشقة باسمه.



بعدها غادر سيد القاهرة كلها، وعاد إلى البلد، وفتح محلا، وصار أشهر مصلحي الأجهزة، يأتيه أهل المدينة والقرى، رغم غلاء أجره، وفضاظة تعامله.

كان يوما بهيجا، عندما أمسك وليد شهادة التخرج، هاتفا وسط أصحابه "حصلت على الدبلوم الثانوي التجاري"، وهم يتمشون في الشارع العريض الذي تقع فيه مديرية التربية والتعليم، بعدما وقف لساعات في طابور طويل حتى وصل للشباك، ليستخرج شهادته، منهي رحلة تعليم امتدت اثني عشر عاما، كان فيها طالبا ينعته مدرّسوه بالخيبة.

يتذكر صدمته عندما حصل في الشهادة الإعدادية على مجموع متدنٍ، لا يتجاوز الستين بالمئة، فلم يجد أمامه إلا الثانوي التجاري، نجح في سنواته الثلاث، بدرجات الرأفة التي يمنحها المدير في بعض المواد، بناء على تعليمات عليا بتقليل عدد الراسبين. هكذا كان يهمس له زملاؤه بثقة، وهم يهربون من فوق السور، واثقين من نجاحهم.

توجه إلى حي "العُرْضي" حيث يسكن مع أمه وشقيقتيه، شقتهم الصغيرة في الدور الأرضي، صالة وغرفتان، أثاثها بسيط، غرفة له، وتنام البنتان مع أمهما في الغرفة الأخرى. عليه البحث عن عمل، وهو على يقين أن هناك آلاف من أمثاله يحملون نفس الشهادة، ولا يجدون عملا. تفكّر في أمه، وكيف تدبّر حياتهم بعملها في التطريز، بجانب معاش أبيه العامل الذي أجبر على التقاعد المبكر في مصنع الغزل، ليتم بيع المصنع، ثم ارتفعت فوق أرضه أبراج سكنية بتخطيط حديث.

اضطر أبوه للعمل في مستشفى خاص، مهمته تنظيف العنابر والطرقات صباحا، ثم الجلوس بجانب المصعد لمساعدة المرضى عندما ينزلون لغرفة العمليات، أو يقومون بإجراء الأشعة. كان "وليد" يحضر ليساعده، وهو في المرحلة الإعدادية، ينظّف ويُعين المرضى، وعندما رآه المدير، صمم على تخصيص أجرة له.

عاد أبوه ذات يوم، ممسكا رأسه، مشتتيا من حرارة عالية، وصداع فوق عينيه. في صبيحة اليوم التالي، صرخت أمه، ولطمت وجهها، بعدما سرت قشعريرة باردة في كفها؛ عند وضعها كمادة على رأسه، وجهه كما كان دائما، إرهاق مع رضا وابتسامة.

وصل وليد للبيت، زغردت أمه وشقيقتاه، وهن يمسكن بشهادة التخرج، ويتحسسن ورقها المقوى، اتجه لغرفته، متفكرا فيما يمكن أن يشتغل به بعد تخرجه.

تداعت في خاطره هوايته المفضلة، الفك والتركيب، يتذكر عكوفه الليلي على المذياع الصغير، ممسكا بسكين المطبخ، يفك مساميره الصغيرة، يتأمل أجزاءه الدقيقة، التي أخرجها من العلبة البلاستيكية، ثم يحدد مكان العطب، إنه السلك المقطوع بين جزئين، المحوّل ومكبر الصوت، أعاد التركيب، ثم قفز فرحا عندما جاءه صوت المذيع في قناة الشباب والرياضة، ينقل مباراة الأهلي والإسماعيلي في الدوري العام.

ترحم شعبان مرات، وهو يبسط الفوطة البيضاء على صدر وليد، متذكرا أباه عم خليل، الرجل الطيب، الذي كان يحلق في الجمعة الأخيرة من كل شهر.



مرتديا جلبابه ذا الكمين الواسعين، كان "خليل" يصلي الجمعة، منصتا للخطبة في جامع المغازي، ثم يتجه لمحل شعبان، يأخذ مكانه على كرسي الحلاقة، يحكي عن فساد إدارة مصنع الغزل، وعن السرقات التي طالت كل شيء؛ الماكينات، والقطن، والخيوط، وعندما قرروا بيعه لتعاطم الخسارة؛ وعدوا العمال بمصنع جديد، ثم أجبروهم على التقاعد المبكر.

عندما عمل خليل في المستشفى، روى كيف أن كل مريض وراءه حكاية، ومرضى المستشفيات الخاصة مختلفون عن مرضى المستشفى العام، وإن جمعهم ضعفهم، وبعضهم يترقب الموت عندما يحملونه إلى غرفة العمليات، فيبالغ في التوبة والاستغفار.

تساءل وليد:

-ماذا أعمل يا عم شعبان لأساعد أمي؟

ضرب شعبان مقصه في المشط المدبب، ليفرغ ما علق بهما من شعرات، ثم تطلع إلى الشاب الصغير ذي الأعوام الثمانية عشر، الحامل ملامح والده؛ الوجه المدور، الشعر الغزير، الأنف المدبب، وسوالف شعره ممتدة إلى لحيته.

-أحكي لك حكاية سجادة الحبيبين.

استغرب وليد، وأرهف سمعه، وأحنى رأسه.

بمهارة تحركت أصابع شعبان، فتطاير الشعر من جديد، وحكى:

- "رشيد" أحب جارته "فاطمة"، منذ أن كانا يلعبان في الحارة، وقرر خطبتها، فذهب مع أمه وطلبها من أبيها. وقفت هي بجانب الغرفة تسمع الحوار، سأله أبوها: يا رشيد، ماذا تعمل؟ فأجابته: لا يلزمني

العمل، ورثت بيتا ومالا من أبي. فقال الأب بحسم: وأنا لا أزوّج ابنتي لعاطل. استغرب رشيد، فقد توقع موافقة الأب، فهو غني، وأخلاقه طيبة، فاستفهم عن سبب الرفض، فقال الأب المثل الشعبي: يا بُنيّ "خذ من التل، يختل". يعني المال سيقل، وقد يفنى. سأل رشيد: ماذا تطلب يا عمي؟ قال الأب: تعلّم حرفة، وأنا أزوجه.

هتف وليد:

-طبعاً، أسرع وتعلّم صنعة!

-أبداً، عاد رشيد لحياته العادية، ولكن حب فاطمة لا يزال مشتعلًا في قلبه. وفي يوم سافر مع أصحابه إلى بلاد بعيدة، وخرج عليهم قطاع الطرق، سرقوا أموالهم، فاضطروا للسير على أقدامهم، حتى وصلوا لأقرب مدينة. وجد رشيد نفسه جائعاً، بلا مال، في بلد غريبة، وبعيداً عن أهله، فاضطر للعمل.

-وماذا اشتغل؟

-لم يجد إلا مصنع سجاد، فاشتغل فيه حمّالاً، وفي يوم، انتبه إلى مهارة عامل السجّاد، وهو يعمل على التّول، فأحب الصنعة، وخلال أسابيع تعلّمها، وراح ينسج من الخيوط سجاجيد جميلة، يرسم عليها الورود والأشجار، الغريب أن صاحب الورشة، لاحظ أنه يكتب في طرف السجادة بخط صغير-كلمتين: "رشيد وفاطمة"، فسأله عنهما، فأجابه أن فاطمة فتاته التي أحبها. مكث وليد سنة كاملة برغبته، وكان قد طمأن أمه وأخبرها عن مكانه، ثم أجاد الصنعة، وقرر العودة إلى بلده.

-إذن تعلم صنعة، فلا بد أن يوافق أبو فاطمة عليه.



- فرحت أمه كثيرا وهي تحضن ابنها الذي عاد وقد اشتد عوده، وبدا أكثر رزانة. قرر رشيد تحويل بيته إلى ورشة سجاد، واستثمر أموال أبيه. وبعد شهرين، ذهب لوالد فاطمة، فاستقبله مرحبا، وموافقا، فقال له رشيد: يا عمي، هذه هديتك، وهذه هدية خطيبتني. فتح الأب لفته القماشية، فوجد فيها سجادة صلاة، مرسوم عليها الكعبة، ثم نادى على العروس، فدخلت بخجل، تطلعت لخطيبها، فناولها لفتها، لتجد فيها سجادة مزخرفة صغيرة، مزدانة بالنقوش، وفي وسطها - بخط كبير - كلمتان: "رشيد، وفاطمة".

أراد وليد العمل في ورشة "سيد الأغا"، سَمِع كثيرا عن حدّته، ومزاجه المتقلب، ولكنه أفضل وأكثر مهارة من غيره، وقد طاف قبله بورش المدينة، فقابلته وجوه جامدة، ورفض متكرر، لأنه كما قالوا، لا يصلح صبيا ينظف، ولا عاملا فنيا يصلح.

لم يجد وسيطا عند الأغا إلا عم شعبان، سار معه ذات نهار، حتى إذا وصلا، آثر شعبان السلام والتحدث مع سيد أولا، أعلمه عن وليد وشقيقاته، وعن أمه التي تعيلهم من عملها في التطريز، وتساعدنا ابنتها، والولد بلا صنعة، ولا عمل ثابت.

تطلع سيد إلى الشاب الصغير الواقف عند باب المحل، ورد ببرود موافقا، مراعاة لخاطر شعبان. دخل وليد بحياء وأدب وسلم على سيد، الذي أكد له أن العمل هنا صعب، وأن لا يقترب من الأجهزة، فمكوناتها دقيقة، ولن يسمح له بالعبث، وعليه فقط تنفيذ ما يأمره به، وأي خطأ يعني دفع ثمن الجهاز، وهذا لن يسمح به.

الصمت ديدنه، وهو يتابع أصابع سيد، منذ أن يفتح الجهاز، ثم وهي تجوس في الأسلاك. بدأ بمراقبته في تصليح الثلاجات بكل دقة؛ يختبر الضاغط، والمكثف، والأنبوب الشعري، والمجفف، وملف المبخر، ومنظم الحرارة، ومؤقت إزالة الجليد، والسخان، حتى الوصول إلى مفتاح الباب، ثم المصباح، والمروحة.

ذاكرته تخترن التفاصيل، تقارن بين أنواع الثلاجات، ثم انتقلت إلى الغسالات، والمرآح، والتلفزيون والراديو، لاحظ أن الشاشات هي الشيء المشترك في الأجهزة، بعكس الثلاجة القديمة التي اشتراها والده بالأقساط، وانتظر دوره في الاستلام عدة سنوات.

وجد عدة كتب -عن طرق التصليح- ملقاة في سندرة المحل، تعود لسنوات التسعينيات، دس أحدها في جيبه، وعكف عليه في ليلته، وأعاده في اليوم التالي، ليأخذ كتابا آخر، يدرك أن سيّد يدقق بنفسه في كل رفوف المحل، ويصعد للسندرة، إذا أراد قطعة غيار قديمة، ويطلق لسانه إذا وجد المكان فوضى، فإذا لم يجد ما يبحث عنه، تتلاحق لعناته لعمّاله بالغباء والإهمال، ينظرون إليه ويلوذون بالصمت، وهكذا تعلم وليد منهم، ومن همسهم المتكرر عن طباعه، وهم يتحملونه، لأنه يعطيهم أجرا جيدا، ويثبتهم معه.

توجب على وليد التجريب بنفسه، بعدما شبع من النظر، تأكله أنامله، تحترق شوقا ليمارس هوايته في الفك والتركيب، وقد شبع من أجهزة منزله.

تتابعت الشهور، وفي الأيام التي يخلو فيها المحل، بذهاب سيد إلى الغداء، وعودته عند الساعة الخامسة، بعدها يتبعه عمر، وذلك في الشتاء، عندما يكون "نايل" في المدرسة. يعكف وليد على جهاز يختاره،



يسترجع ما رآه، يفككه، يعيد تركيبه، ثم تطور في تجريبه بتحديد الخلل، فيقوم بتشغيله، فإن لم يعمل، يحدد مكن الخراب، ثم يتوقف عند هذا الحد. وفي اليوم التالي، يراقب سيد وهو يصلح الجهاز، حتى إذا حدد العطل، طلب منه قطعة الغيار، أو يقوم بإعادة البرمجة، وقد يكون العطب بسيطاً، يصلحه يدوياً.

عامان مرّاً، تلتّهما شهر، كانا وحيدين، وليد وسيد، فقد غادر عمر؛ لتوصيل مروحة لأحد البيوت. غرق سيد في إصلاح غسالة، فاستعصت عليه، بعدما فككها كلها.

وليد في وقفته الثابتة في زاوية المحل، يصله زفير الأسطى المتكرر، ثم كلام غير مفهوم يصدره عندما يكون مقروفاً، لعن فيها الغسيل والغسالات.

تطلع وليد إلى سيد الذي تمتم بأنها غسالة لا ينفع معها إصلاح، ولا بد أن تتكهن، وطلب منه إخبار الزبون بذلك إذا حضر، فاستفسر وليد عما يقوله للزبون حتى يقنعه، فذكر سيد مجموعة أعطال، شملت المحرك، والمكثف، والسّير. استأذن وليد منه لإعادة تجميع القطع، فوافق سيد بهز رأسه، وهو جالس على عتبة المحل، ينفخ دخان سيجارة.

استغرب وليد، وهو يعيد تركيب القطع، فكل المكونات سليمة، دخل سيد، فوجد يد وليد تتسلل إلى مضخة تصريف المياه، أسفل الغسالة، كانت يد الشاب خبيرة، لم تذهب إلى هذا الموضع، إلا إذا كانت قد اختبرت الأجزاء الداخلية، ومن ثم ذهبت للخارجية.

تساءل سيد: لماذا المضخة؟ أجابه وليد بحسن نية أن المحرك والمكثف والسير والحساسات الداخلية كلها سليمة. بخبث طلب منه سيد تنظيف

المضخة، فتحمس وليد، وسرعان ما دارت الغسالة. كزّ سيد على أسنانه،
وتصلبت عيناه المصوبتان.

-طرديني من المحل.

هكذا قال وليد، حاكيا ما حدث لشعبان، الذي ربت على كتفه:

- "شاطر" أنت يا "رشيد"!

ابتسم وليد بأسى، متذكرا الحكاية:

-رشيد مسكين، لا محل عنده، ولا بيت، ولا حتى فاطمة.

- الرزق بيد الرزاق.

مدّ شعبان يده، فأغلق الباب الزجاجي للمحل، سارا متجهين
ناحية شارع "مصطفى كامل"، وعند وسطه، انعطف نحو شارع "درب
حرازة"، ليصلا إلى محل بيت قديم، في حارة جانبية، في أركانه مراوح،
وتلفزيونات، وخلاطات؛ كلها قديمة. واضح أنها "كُهنة" لا فائدة منها.
على أريكة خشبية، يجلس عجوز، تنضح من قسماته الطيبة والهدوء،
وقف مستقبلا شعبان بالعناق، وبعبارات ترحيب، سلّم بحرارة على وليد،
واتجه إلى ركن صغير، ليعدّ الشاي على موقد كهربائي، وهو يلوم شعبان
لعدم لقائهما منذ زمان.

-وليد ابن صديقي الغالي خليل، رحمه الله، أوصيك به يا أسطى
"حامد".

-أنت حبيب، وهو ابني.



يقتصر شغل الأسطى حامد على تصليح الموديلات القديمة للمروحة والراديو والتلفزيون، زبائنه قليلة، غالبيتهم من أصحابه القدامى، وجيرانه في الشارع.

استمع حامد لوليد عن سيد الأغا، ثم جرّبه في تصليح العديد من الأجهزة، فوجد شابا متحمسا، عاشقا للحرفة، فاتفق معه أن يترك له إدارة المحل، على أن يقتسما العائد.

على الجدار الأيمن، علّق وليد ورقة، أن المحل يصلح الغسالات والثلاجات والتلفزيونات الحديثة، وحكى الناس سريعا عن رخص الأجرة، وإتقان العمل وسرعته.

بعد شهور عديدة، مع مطلع الصيف، جاءهما شعبان حاملا مروحة خربة، الأسطى حامد جالس على العتبة، مستمتعا بنسمات لطيفة، محييا الزبائن المتتابعين، يحملون أجهزة معطوبة، أو مغادرين بأجهزة تم إصلاحها. وقف معانقا صديقه القديم، ثم نادى على "عمر"، الذي حضر وأخذ المروحة لفحصها، وارتفع صوت "وليد" من داخل المحل مرحبا بالعم الغالي، ثم فتح ثلاجة صغيرة، تناول منها علبة كولا مثلجة، قدّمها "نايل" على صينية، ومعها قنينة ماء.

استوى ثلاثتهم على مقاعد أمام المحل؛ ضحكات وقفشات. أخبرهما وليد عن "عمر، ونايل" اللذين فارقا "سيد"، فلم يعودا متحمليّن تطاوله، ولا سبابه، فرحبا بهما وليد، وأخبرهما أنهما سيكونان فنيّين، فهو في حاجة لهما. دقائق وعاد عمر، حاملا المروحة، مبشرا شعبان بأن سلكا كان مقطوعا بها، يبدو أنها سقطت على الأرض، فأحنى شعبان رأسه موافقا، مرجعا السبب إلى شقاوة حفيده.

ها هو وليد، مرتدياً جلباباً أبيض، وقد فرغ من صلاة الجمعة في جامع المغازي، متوجهاً إلى دكان شعبان، جلس على مقعد الحلاقة، وقد لمعت دبلّة فضية في خنصره.

-خطبتُ "فاطمة" جارتنا في الحارة.

- ربنا يتم لكما بالخير، والرفاء والبنين، يا "رشيد".

تمتم وليد حامداً شاكراً.

ابتسم شعبان، وأوضح:

-رزقك في كَفِّيك، وذهبُك في فأسك.

-في فأسِي!!

-نعم، هذا في حكاية الحطّاب والفأس.

ثم حكى:

-كان هناك حطّاب فقير؛ راجعاً من الغابة، وفأسه على كتفه، وبينما كان سائراً بجوار النهر، انحرفت قدمه، ووقع فأسه في النهر، فأخذ يبكي، فخرج له من الماء عفريتٌ يحمل فأساً ذهبية، سأله إن كانت الفأس له، فأجابته: لا، فغطّ العفريت في النهر، ثم خرج يحمل فأساً فضية، وسأله إن كانت فأسه، فأجابته: لا. ثم غطّ ثالثاً وخرج يحمل فأساً حديدية، فسأله إن كانت فأسه، فأجابته نعم، فأعطاه الفأس، وأخبره أنها باتت أسرع، وتقطع أعتى الأشجار.



عاد الحطّاب بحمّلٍ كبيرٍ من الأخشاب، قدّمه إلى التاجر الذي يشتري منه كل يوم. دهش التاجر، من وفرة حظّ الحطّاب، فألحّ عليه بالسؤال، فاعترف الثاني له بما حدث، فحمل التاجر فأساً ومضى بها إلى النهر، وألقاه، فخرج العفريت يرفع بيده فأساً حديدية، وسأله: هل الفأس لك؟ فأجاب: لا، ثم غط، وخرج يحمل فأساً فضية، وسأله عنها إن كانت له، فأجاب لا. وغط العفريت في النهر، وخرج يحمل فأساً ذهبية، وسأله إن كانت الفأس له، فأجابه التاجر: نعم، فغط العفريت في النهر، ولم يخرج.







إنها ليلة العيد، بإعلان دار الإفناء -قبيل آذان العشاء- أن الغد غرة شهر شوال، ولِدَ الهلال مبكرا، فازدانت السماء، بُعيد غروب الشمس، وبدا متلألئا محاطا بنجوم مشعة، يتراقص ضوءها في العيون، كأن السماء تحتفي مع أهل الأرض.

شعبان في حقبة الثلاثينيات من عمره، وها هو يقف في شرفة شقته، وقد بدأت أغاني العيد تنبعث من الإذاعات. تناهت إليه من الشارع تهنئات أهل الحارة لبعضهم، وفرحة الأولاد وصياحهم وصخبهم. تتداعى ذكريات طفولته، عندما كان يذهب للصلاة متعلقا بيد والده، مرتديا ملابسه الجديدة. في المصلّى، يصافح أهل الحي بعضهم، أما هو فيركض مع العيال لشراء "البومب" والبالونات والألعاب.

تحسس بطنه بعد إفطار شهّي، اعتاده في اليوم الأخير من رمضان، تأثف من دجاجة بلدي، احتسى مرقها، وحلة ملوخية، عُرِفَتْ أطباق متتابعة منها، وسلطة خضراء، كثر فيها المقدونس والطماطم والخيار، وأرز أحمر، مزدان بالبصل المسلوق.

تنازلت أميمة عن نصيبها ربع الدجاجة، وكوّمت أمامه الأرجل، والأمعاء، والرأس، والكبد، والكلوة، فمدّ أصابعه ليضع بين أسنانها قطعة دجاج مشفّاة من العظم.

جلس متربعا على الكنب، وبجانبه، على الطقوقة الخشبية دورقٌ ممتلئٌ بالعرقسوس المثلج، عبّ منه أكوابا، ثم شكر وحمد. التفت ناظرا إلى ابنتيه حسناء وحنان- كانتا ساعتها في المرحلة الابتدائية- يتناقشان فيما سترتديانه عند خروجهما الآن، هتفت الصغرى حنان:

-العيد باكر.

أردفت الكبرى حسناء:

-نخرج للسوق، قبل ازدحامه.

طأطأ شعبان رأسه موافقا، دخل غرفته، لبس قميصا وبنطالا، ثم اتجه ناحية باب الشقة، متمتما بأن العشاء اليوم بلا تراويح، وسيعود سريرا، أكدت عليه زوجته أن لا ينشغل مع أصحابه بعد الصلاة. ابتسم، فحتمًا سيفعل، فبمجرد تسليم الإمام، وترديد المصلين لتكبيرات العيد؛ تمتد الأيدي سلاما، وتتحرك الألسنة مهنته، ثم تتحاور.

شارع البحر يكتظ بالسائرين، أثر شعبان الجلوس على جدار البحر، مستمتعا بنسمات مشبعة برداذا الماء، منتظرا زوجته وابنتيه اللاتي يتنقلن بين المحلات كعادتهن، فلا بد أن يشاهدن كل المعروض، قبل أن يقررن الشراء، وعليه الانتظار، فإذا اشترين؛ سيأتين إليه، ليحمل عنهن الأكياس، ثم يتجهون في عودتهم لمحل الحاج شيحة لشراء حلويات العيد، قطع البيتي فور والغريبة، أما الكعك والبسكويت والقُرص المحشوة بالملبن، فإن أميمة تبرع في صنعها. ما أروعها تقاليد نهاية رمضان! سواء جاء في شتاء بارد قصير نهاره، أو في صيف حار طال يومه، فالسكينة تملأ النفوس، والرضا يكسو الوجوه.

في جلسته على البحر، انتبه إلى مَنْ يلقي عليه السلام متبوعا بتهنئة العيد، سارع بالرد، والدعاء أن تعاد الأيام عليه بالخيرات. إنه "عادل"، ابن الحاج "عزت" المقاول، بيته في آخر الحارة، أعيد بناؤه منذ أعوام، وتلوّنت واجهته بالأزرق والأبيض.



وَرَعَ أبوه بنفسه زجاجات المياه الغازية على أهل الحارة، بيتنا بيتنا
عندما تخرَّج عادل، أكبر أبنائه في كلية التجارة، وهو يقول: "أول فرحتي،
أنا الذي لم أتعلم".

ساعتها، عندما طرق عزت باب الشقة، جذبته شعبان من ذراعه
مقسما عليه أن يريح قدميه، بعدما طاف على بيوت الحي، وصعد إلى
شقق العمارة. جلس عزت على الكنبة في الصالة، مجففا عرقه، وجهه
يفيض فرحا، ارتشف ماء باردا، وتحدث متمنيا رؤية كل أبنائه جامعيين.

جلس عادل بجانبه على جدار البحر، قسماته تحمل قلقا:

-أهلا يا عادل!؟!

-ذهبتُ لشقتك... ومررت على المحل فوجدته مغلقا.

-استفهم شعبان، فتحدث عادل بصوت متهدج:

-أرجوك تَوَسَّط لي عند الأستاذ سعد، أريد خطبة ابنته.

-تقصد "فدوى"؟

طأطأ عادل رأسه مرات، حكى والدموع في عينيه، عن طموحاته الكبيرة،
وعن حبه لها، ولكن أباهما رفض تزويج الصغرى قبل أختها الكبرى. ثم
أردف برجاء: كلمه يا عمي.

ما أشدَّ حياءها! عندما يقابلها شعبان في الصباح الباكر في طريقها
لمدرستها الثانوية الفنية، ترتدي "جونلة" رمادية، فوقها قميص أبيض،
وتلف رأسها بطرحة تنسدل على كتفيها. تحييه، وتسلم على ابنتيه -اللتين
ارتديتا مرايل كاكية- في طريقهما لمدرستهما.

مرات، عندما كان يقف شعبان في شرفة شقته، يلمح "عادل" في شرفة بيته، منشغلا بكتاب بين يديه، وعينه تترقب ظهور فدوى في الشباك، لا يعلم أن نسوة الحيّ يتهامسن عن الحبيب، وأن القصة تعاورتها ألسنة الشباب، وأضافوا عليها بهارات حارة من خيالهم.

آثر شعبان الذهاب إلى مبنى الشهر العقاري، حيث يعمل والدها "سعد" رئيسا لقسم التوثيقات. مزدحمٌ مكتبه بالموظفين والمراجعين، تطلع إليه مرحبًا، أجلسه بجواره على مقعد، ونادى الساعي لإحضار عصير. ابتسم شعبان، وهمس بأنه موضوع خاص.

اقترح سعد أن يذهبا لخارج المبنى. جلسا على المقهى المقابل، أنصت بهدوء، تحدث شعبان عن جدية عادل وطموحه، وأصالة عائلته وكرم أبيه، وطيبة أمه الست "هدى".

كرر سعد اعتذاره بأن أعمام البنت وأقاربه لا يقبلون بزواج الصغرى، ثم سكت طويلا، وطمتم بأنه يريد إخراس الألسنة، التي لاكت سمعة ابنته بسبب سلوك الولد.

استغرب شعبان عندما شاهد "عادل" يدخل محله، ويجلس بجوار زبائنه؛ إنه من الجيل الجديد المفضل للحلاقين الشباب وصالوناتهم بجدرانها فاقعة الألوان، وأضوائها الملونة، وأجهزة التجفيف، وسماعات الموسيقى الصاخبة، وبراعة حلاقيها في قصّات يسترسل الشعر فيها من مقدمة الرأس، ويكون محفوفًا في الخلف والأجناب.

هتف شعبان، وهو يضع فوطة على صدر عادل:

- لا أعرف الموضة الجديدة.



ابتسامه واهنة كست وجه الشاب:

-احلقه بأي شكل يا عمي، هذه صورة لجواز السفر.

-لماذا؟

- حصلت على تأشيرة لفرنسا.

-أمامك مستقبل كبير هنا.

تلوّن وجهه بهمرارة، وحقى بصوت خفيض، عن هروبه من عيون شباب الحارة وتهكماتهم عن "اللي حَب وما طالش"، فعمل شهورا في القاهرة.

-أحلم بالنجاح والثروة.

-هنا أم هناك؟!

-سيختصر السفر سنوات من عمري.

وضع شعبان المقص والمشط على الرف الزجاجي، وحقى:

-النبى سليمان (عليه السلام)، رأى في مجلسه حمامة تطير صاعدة بين الأشجار والأعشاب، تبحث عن غصن جاف، وجدته وحملته في منقارها. فسأل وزيره آصف بن برخيا، عن تفسير هذا، فقال آصف: إن الحمامة ستبني عشا، وأن هذا الغصن رزقها في سعيها اليوم.

تساءل عادل مستغربا:

-ما معنى هذا؟

أكمل شعبان، وهو يبيح قطرات الماء على شعره المتطاير:

-النبى سليمان عقّب: "كل شيء مقدر ومقسوم"، وكذلك الزواج.

في عرس ابنته الصغرى "حنان"، ارتدى شعبان بذلة جديدة، بكرافت أنيق، وفي قاعة الأفراح الفاخرة، وقف بجانب زوجته مستقبلا المدعوين، أصدقائه وجيرانه وأقاربه؛ متهللا محيّا.

رأى "فدوى" قادمة، أمها تتسند عليها، تسير بخطوات واهنة، ومن خلفها أبوها، وقد فرض الزمن سطوته عليه، فالتجاويد امتدت من وجهه إلى رقبته وذراعيه، يسير الهوينى محيّا أهل الحارة الذين ملأوا قاعة العرس في نادي المدينة الرياضي.

كان الأستاذ سعد قد أحيل للتقاعد، بعد أن قضى عامًا مديرًا للشهر العقاري، مرّت سنوات على مغادرته الحارة، فقد تصدّع بيته، فانتقل إلى شقة حديثة، في حي الجامعة، زاره فيها شعبان ليسلمه بطاقة دعوة العرس بنفسه. الشقة ثلاث غرف، وصالة ضيقة، اكتظت بأثاثه القديم، وعلى الجدران صور ملونة لأبنائه، وبعض أحفاده، وصور قديمة له بالأبيض والأسود في حقب مختلفة من عمره، شابا وكهلا وشيبا.

حدّثه سعد عن حياته التي قضاها ملتزما بالوظيفة والتقاليد، وكيف أن أولاده كانوا يختلفون معه، قائلين إنها حياة روتينية، وأن يومك مثل أمسك، وستنك القادمة مثل الحالية والفاتية.

ضحك شعبان عاليا، ثم تمتم شاكرا لـ "فدوى" التي جاءت حاملة صينية الشاي، وعليها طبق الحلويات، كلامها هادئ، وغاب عن وجهها نضارته، وإن تغلّف براءة.



في العرس، كان استقبالا حارا، عانق فيها شعبان سعدا، تضحكا لتشابه لوني بذلتيهما، ثم همس شعبان بنكتة، انفجر الثاني ضحكا، وقبض على كف والد العروس، مذكرا إياه أنه قد أضحى جدا لحفيدين من ابنته الكبرى حسناء، ثم استفسر مبتسما عن شعره الأبيض، فرد شعبان أنه أعطى الشيب الليلة إجازة؛ بحنّاء سوداء، أخفت بياض السوالف، ومقدمة الرأس.

أمسكت أميمة يدي فدوى وأمها، وصعدت بهما إلى "الكوشة"، حيث العروسين في بهائهما، عانقت فدوى حنان، وقد بدا الانكسار في عينيها. ناولتها أميمة قطعة شيكولاتة، وكأس عصير. ضاحكها شعبان، مستذكرا مشيتها وهي طالبة؛ كانت تخفض عينيها تارة للأرض، وترفعها تارة لتشاهد الطريق، ابتسمت بمرارة، وآثرت الصمت، حتى إذا أجلس والدتها على طاولة، عادت لتسلم على شعبان، هامسة:

-أريدك في كلمة يا عمي.

انتحيا جانبا، أخبرته أنها تعيّنت -منذ سنوات- موظفة في الشهر العقاري، بعقد مؤقت، بوساطة أبيها. والآن يصر على ترك الشغل، لتحصل على معاشه التقاعدي الكبير، مادام ليس لها وظيفة حكومية.

أنهت حديثها، طالبة منه أن يكلم أباه، فالعمل أضحى سلوتها الوحيدة، بعد زواج أشقائها، وفراغ البيت، بل وحياتها نفسها. متم شعبان موافقا، متسانلا عن بقائها دون ارتباط، فعلى حد علمه؛ هناك كثيرون تقدّموا لخطبتها.

ابتسمت بحزن، أجابته:

-إنها القسمة والنصيب، تخطيت الثامنة والثلاثين، ومضى العمر.

صمتت حياءً، ثم تحدثت بمرارة عن بعض الخطّاب الذين سألوا عنها، فأخبرهم شباب الحارة عن قصة الحب القديمة، وأضافت أن غالبية من تقدّم لها إما مطلّون معقدون، أو أرامل تخطوا الكهولة. أردفت بحسرة: -خدمتُ إخوتي حتى كبروا، وحضرتُ أعراسهم، وها أنا الآن أخدم أبي وأمي.

كان نهارا شتائيا، اضطر شعبان لإغلاق الباب الزجاجي لمحلّه، كي لا يتسرب المطر داخله، آثر الوقوف على عتبه، متأملا توارى الشمس، ورمادية السماء. الأرجل راكضة تحتمي بالبيوت والدكاكين أو تحمل مظلات. ما أجملها السماء إذا كانت حبلى بالغيوم! وما أروعها قطرات المطر إذا اشتدّ تدفقها فأغرق الرؤوس، وإذا خفّت فداعت الوجوه!

السيارات متباطأة في سيرها، مسّاحاتها تتراقص على زجاجها، القطرات بين شدة وضعف، رذاذها يتطاير على وجهه، ضوء سيارة فاخرة يضرب عينيه، قادمةً كانت من طريق البحر، اقتربت منه، ثم توقفت، ثمّة ذراع تشير إليه.

ترجّل شخص من السيارة، يرتدي معطفا جلديا أنيقا، يسيل عليه المطر وقد قلّ بعض الشيء، شعره مصفف بعناية، وإن غزاه بياض خفيف، لا يزال وجهه شابا، لم تتغير ملامحه.

إنها خمس عشرة سنة، تبدّلت فيها أحوال، وُلِدَ أحفاد، ومات أجداد، هكذا تداعت خواطر شعبان، وهو يستقبل "عادل"، ويتعانقان بشوق.



سريعا أغلق محله، فقد حان وقت انصرافه، ولا زبائن مع أمطار
متدفقة منذ الصباح، ركب السيارة بجوار عادل، مترحِّمًا على والده الحاج
"عزت"، الذي رَجَلَ منذ ثماني سنوات.

انتبه إلى جلبة في المقعد الخلفي، التفت، بنتان جميلتان شعرهما
ذهبي، وعيونهما زرقاوان، وبشرتهما خمرية، تنظران إليه مستغربتين،
استفهم عنهما، ضحك عادل:

-إنهما ابنتاي.

-تتكلمان بالعربية؟

-مكسّر... ستفهمانك، كنتُ دائماُ أتحدث معهما بالمصري في البيت.

مدَّ كفه مسلِّمًا عليهما، حدّثهما عادل بالفرنسية عن "عمو شعبان".

عن معاناته في الغربة، حكى، منذ تسكعه على الأرصفة، إلى حرف
عديدة مارسها، منها غسل الصحون، والعمل في ميناء مرسيليا، حتى أسَّس
شركة تجارية، ونال الجنسية، تزوج من صديقتة "هيلدا"، وأنجبا هاتين
الجميلتين.

-هل أنت في إجازة هذه الأيام؟

ابتسم عادل، وقال بحنكة: - أنا في إقامة دائمة.

أخبره عن قراره النهائي بالرجوع والعيش في الوطن، أقام في القاهرة
شهورا، ثم قرر العودة إلى بلده جانب إخوته، فاشتري فيلا في حيّ "دلة"،
على الطريق السريع للقاهرة، وأسَّس شركة استيراد وتصدير، وبدأ العمل
بالفعل، والبنتان ترعاهما شقيقته.

ارتسم على وجه شعبان استفهام، فذكر عادل أن ابنتيه سبب رجوعه، فلا يريد أن تتربيا في مجتمع أوروبي، ثم أخبره -مبتهجا- أنهما أحبتا مصر كثيرا.

-وأمهما؟

-للأسف، رفضت ترك بلدها وعملها، وكانت بيننا مشاكل كثيرة، انتهت بالتنازل عن البنيتين في المحكمة، بعدما اتفقنا على الطلاق، وأخذتُ جزءا من ثروتي. وعرفتُ منذ شهر أنها تزوجت، من أحد أصدقائي هناك. سكت، ثم أردف:

-أبحث عن زوجة صالحة تكون أمًا لابنتي.

تبادلا النظرات، متم شعبان: - إنها لم تتزوج.

جمعتهم غرفة الصالون، البنتان تتأملان الكراسي المزخرفة المذهبة، وصور الأبيض والأسود المعلقة، الأستاذ سعد يرحب بعادل كثيرا، بعدما حدّثه شعبان عنه في زيارة خاصة سابقة، زوجته تداعب البنيتين معجبة بشعرهما الأشقر، وجمالهما الأوروبي.

دخلتُ، سلّمتُ، جلستُ في ركن، حمرة الحياء تغلّف وجهها، تطلّعت بعينين تنبضان بفرحة، أشارت للبنتين، جاءتا إليها، قبلتهما بحنان، داعبت وجنتيهما برقة، ضاحكتهما.

طلب منهما عادل أن تقدما نفسيهما، هتفت الصغرى سريعا أن اسمها "هدى"، وقالت الكبرى: اسمي "فدوى".





المؤلف

أ. د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي، والإسلاميات والحضارة،
قاص وروائي ومسرحي.

أصدر (٦٧) كتابا في الإبداع والنقد والإسلاميات، منها (٢٤) كتابا في
النقد الأدبي وعلوم العربية، (٢٧) كتابا في الإبداع القصصي والمسرحي
وأدب الطفل، (١٦) كتابا في الإسلاميات والحضارة، ونشر عشرات البحوث
في المجلات المحكمة عربيا ودوليا، وشارك في عشرات المؤتمرات العلمية،
وحصل على أكثر من (٢٥) جائزة دولية وقُطرية.

مواليد: محافظة الفيوم، مصر

الإيميل :

mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafa_ateia1234@hotmail.com

mostafaateia@gmail.com

فيس بوك د.مصطفى عطية

<https://www.facebook.com/profile.php?id=100000335145335>

الأعمال المنشورة:

أولاً: الدراسات الأدبية والنقدية وعلوم العربية:

- (١) دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١.
- (٢) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- (٣) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.
- (٤) الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت طبعته الأولى بعنوان اللحم والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.
- (٥) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.
- (٦) الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م.
- (٧) الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.
- (٨) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.
- (٩) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٣.
- (١٠) عضو فريق التأليف في كتاب: التاريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.



- ١١) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.
- ١٢) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.
- ١٣) شرنقة التحيز الفكري: أمطاط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.
- ١٤) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.
- ١٥) المعجمية العربية: قراءة حضارية في ضوء الأنثروبوجيا الثقافية. دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.
- ١٦) الرواية العربية: قضايا الإنسان والهوية: إشكالية الريف والمدينة نموذجاً، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ١٧) المحكي والحكّاء: في خارطة الرواية العربية المعاصرة، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ١٨) أنغام الراوي: في خارطة السرد العربي المعاصر، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ١٩) العقرب والبنودول: دراسات في النقد الجمالي والثقافي والسوسولوجي، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.
- ٢٠) سردُ الصورة: دراسات في السينما والدراما والتأويل، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٦.
- ٢١) نهر وأمواج ورمال: هموم الثقافة والنقد والغربة، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٦.

٢٢) التحيز في مسيرة المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والتجارب، دار
جسور للطبع والنشر، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٢٥، وقد صدر من قبل
في كتاب محكم جماعي، بعنوان: تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات،
منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م.

٢٣) الاتساق النصي في البنية الشعرية: قصائد جيكور لبدر شاكر السياب
نموذجاً، دار متون المثقف، القاهرة، ٢٠٢٥.

٢٤) نقد الاستشراق وإعلاء الهوية: بحوث في الفن التشكيلي العربي، دار جسور
للطبع والنشر، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٢٦.

ثانياً: الإسلاميات والحضارة:

١) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر،
القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٢) فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية
ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة، خلق
الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١م،

٣) الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة،
٢٠١٥م

٤) الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م.
٥) منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس
للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٦) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة،
إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٧) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات،
إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.



٨) صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٩) المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٣٦) الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجنديرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

١٠) أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣.

١١) فقه الهجرة: دراسة تأصيلية ضد طروحات العلمانية والإسلاموفوبيا، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

١٢) القصص القرآني: يقينية الخطاب والتلقي والتفسير والبناء، دار جسور للطبع والنشر، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٢٥.

١٣) أوقاف المخطوطات في الحضارة الإسلامية: تأصيل وتأريخ واستشراف، دار جسور للطبع والنشر، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٢٥.

١٤) استراتيجيات النهوض الحضاري في ظل التحديات المعاصرة للأمة الإسلامية"، تأليف: أ.د. مصطفى عطية جمعة (مصر)، وأ.د. محمد رفيع (المغرب)، منتدى العالم الإسلامي، كوالامبور، ماليزيا، بفصل بعنوان: نحو استراتيجية حضارية تربوية ضد التغريب والغزو الثقافي".

١٥) " الهجرة النبوية في الرؤية العلمانية والاستشراقية، الشبهات والردود" عن مركز اجتهاد للدراسات والتكوين، بلجيكا، سلسلة "كراسات بحثية، (إبريل ٢٠٢٦)، بشراكة مع دار عالم الكتب الحديث، الأردن.

١٦) النسوية الإسلامية العلمانية: القراءة الجنوسية لنصوص الوحي، دار جسور للطبع والنشر، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٢٦م.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

- ١) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م
- ٢) نثرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.
- ٣) شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصة، بالقاهرة، ٢٠٠٢، نشر: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣م.
- ٤) طفح القبيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ٥) أقطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.
- ٦) نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠م.
- ٧) مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ٨) قطر الندى، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٣م.
- ٩) على متن محطة فضائية، رواية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.
- ١٠) سفينة العطش، مسرحية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.
- ١١) أصدقاء في عالم الفضاء، رواية للفتيان، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، ط٢، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: رواد فضاء الغد، أطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.



- ١٢) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.
- ١٣) سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.
- ١٤) حدث مألوف، قصص قصيرة جدا، دار شمس للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٢٣.
- ١٥) جزيرة الفئران، مسرحيات للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.
- ١٦) الحسن بن علي، رواية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.
- ١٧) البرتقالة في الزجاج، مجموعة قصصية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.
- ١٨) صندوق الألعاب، مجموعة قصصية للأطفال، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.
- ١٩) الفقر مقتولا: قصة البروفيسور محمد يونس وحره ضد الفقر في بلاده، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ٢٠) النسيم والهجير، رواية، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ٢١) رحيق الأم: قصة حياة "لي ميونغ باك" رئيس كوريا الجنوبية، رواية للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ٢٢) المتسابقون للفردوس، مسرحيات للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
- ٢٣) كنتُ ملحدًا: سيرة العالم الأمريكي جيفري لانغ، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

(٢٤) حذاء منال، مجموعة قصصية للفتيان، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.

(٢٥) وليمة الطيور، مسرحيات للأطفال ومسرح العرائس، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.

(٢٦) كهرباء بلا أسلاك، قصص للفتيان، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.

(٢٧) قُلَّةٌ وَنَعْنَاعٌ، مجموعة قصصية، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٦.

قلّة ونعناع

على عتبة دكانه، اصطفت القلل في أرفف،
يتجرعها المارة، متنسّمين رائحة النعناع في
مائها البارد، أما شعبان، فهو منشغل مع
زيائنه، يُنصت إلى همومهم، ويسترجع أزمنة
خلت معهم، ما بين شباب وشيخوخة، وصبا
وكهولة، يضحكهم، ويسرد عليهم ما
اخترنته ذاكرته من أمثالٍ وأغنيات، ومواقف
وحكايات.

إنها قصص عشر، تقرأ فرادى أو مجتمعة،
فما أكثر وشائجها!



متون المثقف